

# اندلاع الحرب الضروس

إن حياة كاملة من السرية المطبقة والتفرد المهني والاحتراف ، كانت الثمن الذى دفعه « هارى كار » ليتفادي المتاعب تفاديا كاملا في خضم الكفاح الهائل الذى خاضه مدى الحياة ، ولقد عاش « هارى كار » حياة طويلة حافلة بلغت الثامنة والثمانين ، أما أيامه الأخيرة فقد كانت مليئة بالذكريات ومفعمة بالأحاسيس ، وكان يفهم دائما أن الحرص المنظم بمثابة المؤهلات الضرورية للرجل الحرفى ولم تخل تلك الحياة الحافلة من الاتهامات التى نسبت إلى صاحبها وكذا الاتهامات المضادة ، وفى حالة المستر « كار » كانت تلك الاتهامات والاتهامات المضادة أكثر عنفا عن المعتاد - على الرغم من أن معظم زواره كانوا يستثيرون حفيظته وغضبه .

كان « هارى كار » يعيش فى شقة بها غرفة نومه ذات الطلاء الأبيض الشاهب وتقع فى الدور الثانى من بيت تقاعده الذى يطل على المناظر الطبيعية بنوافذه الجميلة ، إن « هارى » هو الذى وصف نفسه فى كتاب « هوية الشخصيات » أنه ضابط سابق بقسم جوازات السفر والسكرتير الأول فى الجهاز الاستخبارى الخارجى البريطانى ، ولقد أحاط نفسه بمجموعة أشياء تمثل ذكريات غالية لديه مدى الحياة وفيها : الأيقونة الفضية ، والقليل من لوحات ألوان الماء ذات الطلاء الجيد وتصور الطبيعة الخلابة ، وهدايا من المستر « بروكوفيف » الذى قام بطلاء اللوحات أثناء إحدى رحلات النزهة العائلية ، وصور فوتوغرافية عن أشخاص فى مشاهد الثلج ، وأدوات لعبة التنس وغيرها .

وتكشف هذه الهدايا التذكارية النذر اليسير أو على الأصح لاكتشف شيئا عن الأربعين عاما الماضية من حياة المستر « كار » وهى التى أنفقها كموظف فى الحكومة البريطانية على الرغم من أن الزائر ربما يلاحظ أن كتبه توحى بانشغاله الدائم واهتمامه بأجهزة المخابرات البريطانية .

وعلى مدار فترة إقامته فى داخل بيت التقاعد ، كان المستر « كار » يزهد فى كل شىء ويحتقر متاع الدنيا الزائل إلا الاتصال الروتينى مع جيرانه وأصدقائه المقربين

وكان يتحرك بين تارة وأخرى داخل بيته ويستمتع حيناً إلى الأغاني الشعبية الراقصة العاطفية التي تنتمي إلى الفن الشعبي والفلكلور الروسى وبخاصة تلك التي يشدو بها المغنى والمطرب المفضل « بيوتر ليشينكو » ، إلا أنه لم يعرف يقيناً ما هو السبب الذي يدفع به إلى النزعة الفطرية في الاستماع إلى تلك الأغاني بولع وغواية .

وحينما كان الشباب ذوو الوجوه الظريفة من الموظفين الجدد يزورونه على غير موعد أو بدون توقع منه ، ويصلون إلى مكان عمله القديم التماساً — على حد قولهم — لخبرته وحنكته في بعض شئون العمل وبخاصة تلك التي كان يقوم بها في الماضى قبل تقاعده ، فإنهم عادة ماكان يجابهم تحفظه وتكتمه وفي نفس الوقت يلقون منه حسن المعاملة وأطيب اللقاء .

وهذا ربما كان السبب في أن يعاود أرباب العمل ( قسم الجاسوسية بجهاز الاستخبارات ) إرسال ممثلين رسميين آخرين إلى بيته لمعاودة التماس الخبرة وبعض التصفح في شئون خاصة بأدق أسرار العمل نظراً لثقتهم العالية في مقدرته المهنية وفي أيامه الأخيرة كان كبار رجال الجهاز الاستخبارى يرسلون بعمال النظافة ( الذين هم أصلاً من رجال المخابرات ) وقد تخفوا في زى العمال العاديين من أجل البحث عن أية مستندات في منزله ربما يكون قد أخفاها منهم ، وخشيت أن تقع في نفس الوقت في أيدي غير أمينة تسييء استغلالها مما يضر بالأمن القومى للبلاد .

وحينما توفى « هنرى لامبتون كار » وفاة طبيعية في ١٩ مارس ١٩٨٨ ، كان قد ترك فراغاً رهيباً في العمل السرى البريطانى ، فهو على مدار أربعين عاماً ، كان قد شن خلالها حرباً ضروساً - وهو أحد مؤسسى جهاز المخابرات السرية البريطانية - على روسيا السوفيتية ، وذلك بالتوازى مع أبناء العم من الولايات المتحدة الأمريكية داخل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذين شنوا هم أيضاً حرباً ضروساً ضد روسيا .

ولقد أحس بفطرته أنه من الأفضل أن يترك الحسابات والتي لم يتم تسويتها بعد طالما أن الأمور قد قضت بذلك ، وعلى الرغم من أن التاريخ قد سجل له جنونه واهتمامه الزائد بمراعاة الأمن القومى لبلاده ، وأنه تعرض للغدر وهَوْن الناس في الجهاز البريطانى السرى من أعماله وانتصاراته ، ولذلك فقد ظل دائماً مقتنعاً بما حققه من النجاحات الشخصية التي لم يكن مستعداً لشرحها ، إن وفاة « كار » قطعت آخر صلته بتلك القصص التي لانتتهى أعاجيبها .

## مولد رجل الاستخبارات القوى

ولد المستر « كار » في ٢٨ نوفمبر ١٨٩٩ بالقرب من عاصمة سانت بيترسبرج لأب يعمل مديراً لخمسة مطاحن بريطانية ، وكان يتمتع بحياة طليقة سعيدة كرجل مهاجر يسكن في جزيرة « موسى » التي كانت تحتوي على ملعب تنس فريد في نوعه مكسو بالخضرة والمناظر البهيجة ، كما كان والده يفاخر بوظيفته وحبه العظيم لبلاده ووطنه البعيد .

وفي ذلك الزمان البعيد كان آلاف من الألمان والبريطانيين والفرنسيين يعيشون مع عائلاتهم بالقرب من البحر البلطى حيث يعملون ويديرون أعمالهم ويكسبون أرزاقهم ومنهم من حقق الثروات الطائلة والأموال العريضة من المصانع والعقارات والضياع والبنوك في روسيا الرأسمالية .

فقد كانت روسيا شأنها في ذلك شأن سائر البلدان الأوروبية والأمريكية في الغرب ، كانت موطناً لاجتذاب رؤوس الأموال والاستثمارات الأجنبية وكان يستثمر أمواله هناك أجيال كاملة كثير من رجال الأعمال الأجانب والتجار .

وهكذا جنى الثمار من جاء من بعدهم، فضلاً عن حقيقة أن فقر روسيا مكن أهل الغرب المستثمرين في روسيا من الاستمتاع بحياة رغدة ومستوى معيشى مماثل لذلك الذى كان سائداً في ظل الحكم البريطانى .

وحتى عام ١٩١٤ كان المستر « كار » قد شهد بحياته طرقاً من هذا النعيم والبهجة وانطلاقة الحياة ، وفي نفس العام اندلعت نذر الحرب العالمية الأولى ، مما اضطر الأسرة إلى العودة إلى إنجلترا في مدينة « هيل بيرى » حيث تلقى تعليمه هناك في الكلية المسماة بنفس اسم المدينة .

وفي اثناء سنوات الحرب الناشبة ، أنفق المستر « كار » ذلك الزمان في الدراسة منقطعاً عن أسرته إلا أنه كان واثقاً من سلامتهم وأنه لن يلحقه أذى بسبب ظروف الحرب ، وكذلك أسرته التي كانت تبعد مئات الآلاف من الأميال عن موقع العمليات العسكرية والحربية في الجبهة الشرقية ، إلا أن هذا الوهم انقصر عام ١٩١٧ ، بسبب إندلاع الثورة البلشفية والإطاحة بأسرة « رومانوف » الحاكمة .

أصاب الاضطراب المستر « كار » لأن تقارير الصحافة آنذاك كانت تسجل تحقيق البلاشفة والثوار لانتصاراتهم المتوالية ، وكتب أن الثوار الجدد ثاروا يتحدثون أعمق

أسس وجذور الرأسمالية الغربية ، حيث كانوا يدعون إلى الشيوعية ، ومناهضة المجتمع الرأسمالى الليبرالى المفتوح ويأمنون بالاقتصاد الموجه والمجتمع المنغلق وفرض الستار الحديدى .

وأخذ « لويد جورج » عقب تخرجه من كلية المدفعية الملكية وتوليه المناصب الكبرى فى إنجلترا ، أخذ يجند المتطوعين الموالين المشهورين بالولاء والإخلاص والوفاء ويعدهم من أجل الاضطلاع والقيام بمهام خاصة داخل روسيا الشيوعية من أجل تغيير عجلة الأحداث هناك وإيقاف المد الشيوعى ، وتغيير وجه الحياة والتاريخ فى تلك البلدان التى عرفت آنذاك بجمهوريات الاتحاد السوفيتى .

انتهز « كار » الفرصة وعاد إلى روسيا عام ١٩١٩ عضوا فى جيش من الرجال السريين والعملاء والجاسوسية من أجل الإطاحة بالشيوعيين ، وكان شأنه شأن الكثيرين من الضباط المؤسسين لجهاز المخابرات السرية البريطانية ، إذ صارت حياته كلها مكرسة من أجل المغامرات العجيبة والخطيرة فى العمل الجاسوسى والسرى ، مما أدى إلى كسر شوكة العدو .

تنازل القيصر الروسى نيقولا الثانى فى مارس ١٩١٧ ، وكانت الحكومات البريطانية والفرنسية والأمريكية قد شغلتها المشكلات الملحة للحرب الدائرة على الجبهة الغربية وتجاهلت التحذيرات الواردة التى أضاءت الضوء الأحمر ضد الثورة الناشئة فى روسيا ، وفى ذلك الحين كانت الاستجابة الصادرة عن تلك العواصم الثلاث ، لندن وباريس وواشنطن بطيئة ومرتبكة ، فضلا عن نقص المعلومات وتشوهها وفقدان التعاطف مع النظام القديم القيصرى المخلوع .

وأصدر « لويد جورج » تعليماته - وكان رئيسا لوزراء بريطانيا آنذاك - بإرسال بعض المال إلى « الكسندر كيرينيسكى » رئيس الوزراء الجديد ، غير أن المزيد من المعونات والعون قد تم حجبها ، حتى يتم تلقى تقارير العميل الذى استأجره الأمريكان وهو المؤلف « سوميرست موم » الذى كان يسافر مرتحلا حينذاك عبر اليابان وفيلاديفستوك ، عن تحرياته وتجسسه فى تلك البقاع الشيوعية ، وحدث بعد ذلك أن استقال « كيرينيسكى » فى ٨ نوفمبر وحل محله « لينين » والبلاشفة .

وعلى الرغم من أن تلك الأخبار كانت مفزعة ، إلا أن الحكومة البريطانية اجتمعت وأخذتها الدهشة والرعب من التقارير التى قالت بأن الزعيم السوفيتى الجديد عقد

مباحثات ومفاوضات سلام - بعد توليه الحكم بأيام معدودة - مع الألمان ، وهكذا صار واضحاً أمام الحلفاء الغربيين أن هدنة على الجبهة الشرقية صارت الآن مما يحسب حساب وقوعه ، والنتيجة هي أن الجيوش الألمانية سوف تتركز في الغرب من أجل شن الهجوم الجديد ، وأنه في حالة انهيار الحكومة السوفيتية الجديدة ، فإن الألمان سوف يتجهون من أجل ملء الفراغ على حساب الاستثمارات البريطانية الضخمة هناك .

وباءت جميع محاولات « لويد جورج » لإقناع البلاشفة بالاستمرار في الحرب ، وفي ٣ مارس ١٩١٨ ، وقع البلاشفة السوفيت مع الألمان معاهدة سلام كان من بنودها ، أن يدين الحكام الروس الجدد ويتخلوا عن مزارعهم التاريخية في فنلندا .

كما جاء في بنود هذه المعاهدة أن يتنازل الروس عن مزارعهم في كل من جمهوريات البحر البلطيقى الثلاث وبولندا وأوكرانيا ، وراح الجيش الألماني والقوات الألمانية تدعم من احتلالها لسائر هذه المناطق .

إن المحاولات السوفيتية اللاحقة للتنصل من تعهدات لينين هي التي وضعت الأساس للكثير من مؤامرات « كار » التي قام بها على مدار الأعوام الأربعين التالية ، وفي ٦ مارس ١٩١٨ ، اتخذ الحلفاء أول إجراء وقائي لهم حيث تم إرسال مائة وثلاثين غواصة بريطانية إلى روسيا تحت إمرة الميجور جنرال « ماينارد » ، وهي بمثابة المقدمة الأولى لما صار يعرف فيما بعد باسم « القوة التأديبية لشمال روسيا » .

وكان من مهام هذه البنود حماية المخازن والمواقع العسكرية الضخمة التي وردها الحلفاء إلى الجيوش القيصرية وتشكيل سلك شائك ضد المحاولات الألمانية لغزو شمال روسيا ، وكان هناك بعض الشخصيات في لندن ، وبخاصة منهم المستر « ونستون تشرشل » الذين صاروا يتحدثون عن استخدام القوات والجنود البريطانيين كنواة لقوة مستقبلية للإطاحة بالبلاشفة .

وكان تشرشل حينئذ يشكل أقلية بصوته ، وبخاصة منذ هبوط الجنود البريطانيين في « ميرمانسك » طبقاً لأحكام اتفاقية « تروتسكى » ، إذ كان المستر تشرشل تراوده أحلام توسيع الأمبراطورية البريطانية ، وكانت روسيا هي العدو التقليدي لبريطانيا في آسيا ، ومصدراً للصراع الدائم على طول الجبهة الهندية وفي الأراضي الغنية بالبتترول في الشرق الأوسط .

ولقد أدت تعهدات لينين بنشر الثورة الشيوعية عبر العالم الغربي إلى أصداء واسعة

التذكير وبمخاوف « ديزرائيل » الكبرى التاريخية ، إذ كان يرى في روسيا الدولة العظمى الضخمة المتنامية ، وقال تشرشل : إن البلاشفة سوف يتسببون في المزيد من تفاقم الأوضاع وسوءها عما كانت الأحوال على عهد القيصرية ، فكانت إزاتهم أمراً حيويّاً لتأمين وحماية الاستثمارات البريطانية الضخمة وبخاصة الاستثمارات المتعاظمة داخل روسيا .

وتزامن مع وصول أول فرقة من القوات البريطانية إكمال الميجور جنرال « فريدريك بول » المشرف على إمدادات جيوش الحلفاء ، إكماله بنجاح المفاوضات السرية لشراء الأسهم الكبرى داخل البنوك الروسية الرئيسية .

واقترح مجلس الحرب البريطانى أن يكون هذا الشراء بمثابة الضربة لأن الاقتصاد الروسى سيكون مملوكا لبريطانيا مما سوف يساعد مساعدة فعالة في تدعيم موقفها ، وكان الاعتقاد السائد في الحكومة البريطانية في ذلك الحين أن انقلاب البلاشفة سوف يكون بمثابة سحابة الصيف التى سرعان ماسوف تنقشع ويحل محلها حكومة أكثر اقترابا مع الغرب .

أما بالنسبة إلى البريطانيين ، فقد كانت الأولوية تتمثل في إعاقه التقدم الألماني إلى داخل روسيا في نفس الوقت الذى يشن فيه العملاء البريطانيون داخل موسكو انقلابا مضاداً ناجحاً لإزالة الأنقاض الحمراء المثيرة للمتاعب والاضطرابات هناك .

وعلى مدار القرون الخالية ، كانت البراعة البريطانية في خلق واحتلال الأراضي وضمها إلى الأمبراطورية البريطانية يعتمد أساساً على النشر الناجح للعملاء السياسيين الدواهي إلى المناطق الرئيسية لشراء المساندة من جانب الجماعات المناوئة والمنشقة ولأجل الانضمام في صفوف بريطانيا للحرب ضد العدو المشترك .

فكان بذلك « العمل الخفى » بديلا رخيصا وفعالا عن الاشتباك العسكرى ، وفي عام ١٩١٨ ، كانت هناك أكثر من سبب للحكومة البريطانية من أجل اللجوء إلى هذه التكتيكات البارعة المتقنة والماكرة ، وبالتالي فقد ساعد البريطانيون المقاومة السوفيتية المعادية لنظام حكم البلاشفة وأمدوهم بالمال والعتاد .

كان الكابتن ( نقيب ) « فرانسيس كرومى » أحد مهندسى الانقلاب المضاد ، ويعمل مساعدا للملحق البحرى ، وجمع مليون جنيه نقداً لتمويل أية مؤامرات تقى بالغرض المطلوب ، وفي أثناء العام الماضى ، كان « كرومبى » الذى يعمل مع ضباط

بريطانيين آخرين وعملاء مختلفين مُدكُون شبكة من البحارة والعمال الروس الذين سوف يفرقون في مقابل الرشاوى وتنفيذا لأوامر البريطانيين ، يفرقون المناجم ، وينسفون مواقع الذخائر والمخازن ويفرقون الأساطيل الروسية في البحرين البلطى والأسود .

وكانت الخطة تستهدف رسميا حرمان الألمان من أية مميزات مثل القيام بشن غزو مفاجيء ، كما كانت المخططات التى رسمتها أجهزة المخابرات السرية البريطانية تستهدف حرمان البلاشفة أيضا من أية ميزات تمكنهم من المقاومة مستقبلا ، فكان عليهم كذلك استخدام نفس الاستراتيجية ونفس الشبكة للتضييق على البلاشفة .

ومثل حلفاء الدبلوماسيين فى شتى البقاع ائتلافا صليداً مكونا من مختلف الجماعات القومية التواقين لاستغلال تفكك الحكم المركزى الروسى من أجل فرض استقلالهم الخاص بهم وكذلك استقلال القياصرة ، وكانوا يعرفون لأسباب مختلفة باسم الروس البيض .

وتدعمت أنشطة « كرومبى » حيث تم تزويده بسلسلة متوالية ومتعاقبة من العملاء المرسلين من لندن ، وكان مرسلهم هو السير « مانسفيلد كامينج » رئيس جهاز المخابرات البريطانية السرية ، وكان الغرض الكبير هو استغلال أية فرصة لإبعاد الثوار عن الحكم .

ولقد أفنعت أنشطة ثلاثة عملاء على وجه الخصوص هم « سيدنى ريللى » ، والكابتن « جورج هيل » ، و « بول ديوكس » ، بالتعاون مع وجود الممثل البريطانى الأول المستر « روبرت بروس لوكهارت » فى موسكو ، أفنعت البلاشفة عام ١٩١٩ بأن جهاز المخابرات البريطانية السرية كان هو عدوهم الأول والأقوى ، ولقد ظل هذا الانطباع سائدا على مدار أربعين عاما تقريبا .

أما « ريللى » الذى كان يطلق عليه أساسا اسم « سيجموند روزينبوج » ، فقد كان مغامرا ومستثمرا ورجل أعمال اكتسب ثروة لابأس بها كتاجر سلاح قبل وأثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ومن خلال ذلك استطاع أن يكون صداقة ناجحة مع جهاز المخابرات البريطانية السرية ، وفى ذلك الوقت فى زمن البلاشفة وانقلابهم الذى تم فى عام ١٩١٧ ، كان « ريللى » يقوم بزيارة إلى سانت بترسبرج كعميل وسرعان ما استطاع استغلال الفوضى الضاربة هناك .

وكان ذلك الرجل قد حباه الله بالمقدرة والموهبة على التنكر والتخفى في وجوه عديدة بطرق متقنة لا تكشف حيث كان يستطيع أن يقدم نفسه للناس ببراعة كتاجر تركى أو تاجر يونانى أو كوميسار روسى .. الخ ، مما هيا له الاطلاع على والوصول إلى مكتب « بتروتسكى » في وزارة الخارجية .

والاشياء التى رآها أكدت بغضه ومقته لما وضعه « السرطان الخفى » للشيوعية ، وسرعان ما قبل في شوق عرض الجهاز السرى للمخابرات البريطانية بالقيام بأية مؤامرات من شأنها أن تطيح بالشيوعيين عن السلطة في البلاد ، وكان له اسم كودى هو « س . ت . ا . » .

وحيث كانت الإمبراطورية الروسية غارقة في الحروب الأهلية ، فقد كان أمرا واقعيا أن يتدبر ويتأمل في كيفية تنفيذ انقلاب ناجح ومضاد ومناهض للبلاشفة ، واستطاع المسئول البريطانى والممثل الأنجليزى في روسيا ، وهو « ريللى » استطاع أن يقابل مجموعة من الضباط في جمهورية لاتفيا السوفيتية ، وهم أعضاء في العرس الخاص للزعيم « لينين » وكانوا مستعدين لخيانته .

وسرعان ما شرع « ريللى » في التآمر مع « كرومبى » بناء على أوامر من لندن لتدمير الأسطول الروسى في البحر البلطيقى ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع عملاء وجواسيس الـ « تشيكا » الجهاز الاستخبارى الروسى أن يكشفوا تفاصيل المؤامرة البريطانية ، ناهيك عن خيانات الجواسيس والعملاء المزدوجين ، وكان الـ « تشيكا » هو جهاز المخابرات السرية السوفيتية الذى أعقب المخابرات القديمة المعروفة باسم « أوخرانا » وكانت روسيا القيصرية قد وسعت من أنشطته على مدار ثلاثة عقود كاملة من الزمان قبل الحكم الشيوعى للبلاد ، لكشف الروس المتآمرين والثوريين في المنفى .

اخترق عملاء مخابرات « أوخرانا » تنظيمات العديد من الشيوعيين ومجمعاتهم وحيدتهم وبخاصة المنظمات التى اتخذت من أوروبا الغربية منفى لها ( كما قيل : إنها زرعت أحد العملاء في داخل بيت لينين على الرغم من أن ذلك لم يؤد إلى نفع ملموس ) ، وفي أثناء العهد الذهبى وأيامه السعيدة التى أعقبت نشوب الثورة ، أمر لينين بتسريح وتفكيك جهاز الـ « أوخرانا » كرمز لاحتقاره لنظام القياصرة ، إلا أنه سرعان ما استبدل به جهاز الاستخبارات السوفيتى الشهير المعروف باسم الـ « تشيكا » .

كان الرفيق « فيلكس دزرزنيسكى » مؤسس جهاز الاستخبارات السرية

السوفيتي الجديد الذي عرف باسم « اللجنة غير العادية لعموم روسيا الخاصة بمكافحة الثورة المضادة والتخريب » ، ينتمى إلى أصول بولندية وتشعب رجال دزرزنيسكى بإرشاده وتوجيهاته العنيفة : « إننا هنا من أجل القضاء على الإرهاب المنظم ... يتعين على جهاز الـ « تشيكا » أن يدافع عن الثورة ويقهر الأعداء حتى لو كان سيفه في النهاية سوف يبتز رؤوس الأبرياء » ، مما جعلهم يؤمنون بأن جهاز التشيكا ليس من اختصاصه إصدار الأحكام بل الضرب بشدة وعنف .

ولما مات القيصر في ٢٥ يوليو وإعلان السوفييت موته رسمياً شهدت « ايكاتينبرج » مقتل كافة أفراد العائلة الامبراطورية ، وفي نفس اليوم استولى الروس البيض على المدينة المسماة « ايكاتينبرج » .

وفي ٢١ اغسطس تم استكمال مؤامرة اشترك فيها المستر « ريللي » وكان من جرائها أن أطلقت « دورا كابلان » وهي امرأة اشتراكية رصاصتين على الزعيم لينين فأصابته في الرئة والعنق ، وكاد لينين أن يشرف على الموت وبعد ساعات من العملية اقتحم عملاء جهاز استخبارات الـ « تشيكا » السفارة البريطانية وأطلقوا الرصاص على « كرومبى » فأردوه قتيلاً ، وشرعوا في العريضة والقتل ، وأسروا وسجنوا الضباط القياصرة والمتعاطفين معهم .

هرب « ريللي » إلى بريطانيا غير أنه تم إلقاء القبض على « بروس لوكهارت » ثم تم إطلاق سراحه فيما بعد بالمقايضة والمبادلة مع أحد الممثلين السوفييت وهو « ماكسيم ليتفينوف » الذى ألقوا القبض عليه في لندن كإجراء وقائى ، ومن هنا بدأت العلاقة المستقبلية والتاريخية بين جهاز التشيكا وجهاز الاستخبارات السرية البريطانية .

وعلى الرغم من أن مؤامرة « ريللي » جاءت بنتيجة عكسية ، نجد أن الحكومة البريطانية بالاشتراك مع معظم المراقبين الغربيين ظلوا على قناعة بأن نظام « لينين » سرعان ماسوف ينهار ، ضحية للفوضى والعوز والفقر والمجاعة والطاعون ونتيجة أيضاً لزحف الجيوش الروسية البيضاء التى جعلت تحتشد وتتلاقى في فنلندا وسيبيريا وجنوب روسيا استعداداً للسير صوب موسكو وبيترومراد .

وفي يونيو هبط ستمائة جندي بريطانيين جدد في « ميرمانسك » اعتبرت موسكو - تلك المدينة التى اتخذها الزعماء السوفيت عاصمة جديدة لدولتهم لتجنب مخاطر احتمال السقوط في أيدي الألمان أو الحلفاء - إن وصول القوات الإرسالية التأديبية يخلو

من أية مصداقية تبرر الادعاءات التي ساقها ومنها الاطلاع بمهام الحماية والحراسة .  
أما لينين فقد استشفى وتعافى من محاولة الاغتيال ، فقد نظر بعين الشك والريبة  
إلى الجيش الجرار المعادى الذى اتخذ معسكره فى الشمال ، مما حدا به إلى الشك من  
أن القوات البريطانية سرعان ما سوف تزحف على الكريملن .

وأما « لويد جورج » فقد كان يعتبر هذه القوات غير ذات قيمة فى روسيا إلا أنها تم  
إرسالها من أجل أسباب سياسية وليس من أجل أسباب عسكرية ، على أية حال كان  
البلاشفة يؤمنون بأن الساسة فى لندن لن يوافقوا على احتواء الثورة أو تدميرها ، غير  
أنه لم يكن هناك ثمة وزير يمانع فى إيقاف الانزلاق صوب تأييد الروس البيض ضد  
الروس الحمر ، ولقد كان التمويل أكبر عقبة وكان أسهل الحلول تجنيد الحلفاء .

وفى الواقع كانت هناك فرقتان تنتميان إلى الجنود التشيك هما الحليفتان وقوامهما  
٧٠٠٠٠ رجل ، الذين كانوا حتى عام ١٩١٧ ، يقاتلون فى صفوف الجيوش القيصرية  
ضد الألمان ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يرتحلون ويسافرون إلى بلادهم عبر مدينة  
« فيلاديفوستك » إلا أن لويد جورج كان يأمل فى التحول معهم والعودة صوب مدينة  
« ميرمانسك » حتى يتسنى للقيادة البريطانية السيطرة عليهم .

وبذلك صارت ضمانات سلامة التشيك الحجة والذريعة من أجل كافة أعمال الهبوط  
والإبراز اللاحقة التى قامت بها قوات الحلفاء .

وكان المصدر الثانى للقوات الضاربة هى الولايات المتحدة الأمريكية ، وشرع  
اللورد « ريدنج » السفير البريطانى فى واشنطن ، فى حث الرئيس الأمريكى ويلسون  
للاللتزام باحتواء الثورة البلشفية ، أما العقبة فهى المبادئ الأربعة عشر التى نادى بها  
الرئيس ويلسون التى طالبت بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية للأمم الأخرى .

واقتنع ويلسون أن يرسل ١٥٠ فرداً من مشاة البحرية الأمريكية إلى مدينة  
« ميرمانسك » على الرغم من أن الهدف كان أساساً الحراسة والقيام بواجبات الحماية ،  
ولدى وصول هذه القوات وبدون الرجوع إلى واشنطن تجاهل الضباط المحليون الأوامر  
ووضعوا أنفسهم تحت إمرة الجنرال « ماينارد » ثم تم دفعهم صوب الجبهة والهدف  
حسبما قيل آنذاك : هو استطلاع التقدم الألمانى ، إلا أن الخطط البريطانية كانت تتغير  
بصورة رئيسية .

وفي أول اغسطس اقترب أسطول صغير تابع للحلفاء يقوده الجنرال « بول » ،  
اقترب من « شانجيل » ثم احتجزه البلاشفة حينذاك ، وسرعان ما تبادل الجنود  
البريطانيون النار مع المدافعين الشيوعيين الذين هربوا في وقت لاحق ، ورحب الروس  
البيض بالقائد « بول » الذى استوثق من خلال التقارير بأن الجيش الأحمر كان  
يتقهقر في كل من سيبيريا في الشمال وفي الجنوب ، وصارت موسكو عارية من الدفاع  
أمام الجيوش المعادية للثورة .

وبينما كان « تروتسكى » يطلب المزيد من القوات ، لم يرسل الرئيس ولسون  
سوى تعزيزات قدرها : ٤٥٠٠ من رجال المشاة الأمريكان ، والمهندسين والأطباء ، هم  
الذين أبحروا إلى « ميرمانسك » ، أما القوات الأمريكية الأخرى فقد أرسلت إلى سيبيريا  
للمساعدة في تدعيم صفوف الـ ٧٢٠٠٠ جندى يابانى وكتيبة من المشاة البريطانيين  
الذين هبطوا في « فيلادفيستوك » من أجل حماية الفرقتين التشيك حسبما قيل آنذاك .

وفي خضم هذه التعزيزات ونشر القوات ، شن الحلفاء في ٨ أغسطس هجوماً  
مضاداً كاسحاً وناجحاً على الجبهة الغربية ، التى صنعت نهاية لطموحات القيصر  
والعذر الأسمى لإرسال القوات المتحالفة إلى روسيا ، وبدأت قوات الجنرال « ماينارد »  
بناء على مبادرة ذاتية منهم بتجاهل الموقف الجديد ، وشرعوا في تجنيد القوات الروسية  
غير النظامية لمحاربة البلاشفة .

أما في لندن ، حيثما اقتربت الحرب من وضع أوزارها ، شرع مجلس الوزراء في  
التركيز على روسيا السوفيتية ، أما الإجماع الذى تصور لينين أن يجمع ويوحد الوزراء  
ومستشاريهم العسكريين لإصدار هجوم مباشر على موسكو فلم يكتب له أن يتم على  
أرض الواقع .

وبعد مناقشة حاسمة في ١٢ نوفمبر ، وبعد يومين من الهدنة استهدفت تقرير عما  
إذا كانت بريطانيا تعتزم سحق الثورة ، احتشدت مجموعة صغيرة من الوزراء في قاعة  
العميد بحرى « بلينيكرز » في وزارة الخارجية البريطانية لدراسة الاختبارات المقدمة من  
جانب الجنرال السير هنرى ولسون ، رئيس أركان الحرب العامة الامبراطورية .

وكان ولسون صريحا إذ طالب إما أن ترسل بريطانيا فرقا عديدة إلى روسيا وهو  
أمر ربما يكون صعبا في نفس الأسبوع ، حيث أن أعظم حمام دم في تاريخ العالم كان

قد انتهى وولى ، وإما أن تبذل بريطانيا كل ماتستطيع فعله على أرض الواقع لمساعدة أصدقائنا عن القيام ببداية جديدة ثم الانسحاب .

ولقد تزعم ونستون تشرشل ، عشية تعيينه وزير دولة لشئون الحرب الصقور المناهضين لما أسماه « الهلاك » ويرفع رايته قبل أسبوعين من ذلك اللورد روبرت سيسيل ، وكيل الوزارة لشئون البرلمان ( وكيل وزارة الخارجية البريطانية لشئون البرلمان ) الذى اقترح أن تتخذ الفرقة من روسيا مقراً وأن تكون بمثابة رأس الحربة للحرب الصليبية الغربية ضد البلشفية .

وكان المستر تشرشل يقول : إن روسيا سرعان ما صارت حيوانا بربريا على أيدي البلاشفة ، فهم قوم أسسوا بنيانهم على المجازر والدماء والاغتيالات وهكذا فإن الحضارة تتعرض للفناء تدريجياً فى مناطق كثيرة حول العالم .

وحدث مجلس الوزراء على كسر شوكتهم باستخدام جيش جرار مرووع من قوات التدخل متعددة الجنسيات لأنه مالم يتم ذلك ، فإن الحلفاء سوف ينتهى بهم المطاف فى مؤتمر السلام إلى الابتهاج بانتصار ليس له أساس ، وليس بانتصار فى شىء .

وعلى الرغم من أنه بحلول نهاية عام ١٨١٩ ، كان هناك ١٨٠٠٠٠ جندي أجنبى على أراضى روسيا والمناطق التى يسيطر عليها البلاشفة التى كانت لاتزال صغيرة ، غير أنه يؤيد المستر ونستون تشرشل أصدق الوزراء فى المجلس واعتبروا أن اقتراحاته عدوانية .

ولقد تزعم لويد جورج الإدانة لما أسماه « المشروع المجنون » الذى سوف يتسبب على حد قوله فى نشوب « ثورة فى بريطانيا » غير أن تشرشل كان صلفاً عنيداً فى موقفه ، ولما سمع بأن رئيس الوزراء ينظر فى عقد مفاوضات مع النظام الجديد ، هرع مسرعاً إلى مقر رئاسة الوزراء البريطانية فى ١٠ داوننج ستريت وأخبر زعيمه بأنه « ليس من الحكمة إضفاء المشروعية على اللواط حيث ذلك يكافئ الاعتراف بالبلاشفة ، وأدان فظائع لينين إدانة عنيفة وكذلك المذابح التى نصبها للأبرياء .. وجعل يصب جام غضبه على النظام الروسى الجديد ويصفه بأقذع الوصائف .

ولما كان السياسة قد افترقت كلمتهم حينما اصطدموا بهذا المأزق ، فإنهم جعلوا يتبادلون كلمات الهراء والجدل ، وتقرر أن يتم إرسال بعض القوات البريطانية إلى « أرشانجيل » وإرسال جنود ومستشارين وإمدادات إلى الجنرال أنتون دينكين الذى

كان يقود الجيوش المناهضة للبلاشفة في الجنوب ، كما تقرر أن يتم تنصيب تجريدة عسكرية من الجنود لحراسة خط السكك الحديدية الذي يربط بين البحر الأسود وبحر قزوين .

وفي الأسابيع التالية تم إرسال ٤٠٠٠ ( أربعة الاف ) جندي بريطاني إلى أرشانجيل ، فصار العدد الاجمالي ٦٣٠٠ ( في مقابل ٥٢٠٠ جندي أمريكي ) ، فضلا عن زيادة أعدادها إلى ١٨٤٠٠ جندي ، وكان هذا الحل الوسط عرضة لتفسيرات عديدة مختلفة ، وفي الوقت الذي كانت فيه وزارة الخارجية تؤمن بأن بريطانيا يجب الا تتدخل في الشؤون الداخلية لروسيا إلا أنها مع ذلك كانت تخشى من أن انسحاب القوات البريطانية سوف يؤدي إلى سوء الفهم ، وأما الآخرون فقد كانوا يعتقدون بأن هذا القرار ماهو إلا عبارة عنا التزام لتدمير البلاشفة .

وكان من بين الذين وصلوا إلى « ميرمانسك » في ١٩١٩ شاب اسمه « هاري كار » ويبلغ من العمر تسعة عشر عاماً ، والذي استطاع أن يشق طريق عودته إلى روسيا وإن وجد فرصة في الخدمة من صفوف الجيش ، وجندته وزارة الحربية كمترجم ، وتم إلحاقه على هيئة العاملين التابعة للجنرال « مارينارد » وفي غضون أيام سرعان ماتم تقديمه إلى قدس أقداس المؤتمرات والمكائد البريطانية .

وبعد ستة أسابيع من وصوله ، تعرف والده على القائد الجديد للبعثة التأديبية وهو الجنرال « إدموند إيرونسايد » واستطاع أن يضمن لابنه النقل إلى المقر الكائن في « أرشانجيل » والعودة إلى أفراد عائلته .

كان التراجمة أعضاء في قسم المخابرات الحربية واعتمدت أركان « ايرونساند » عليهم اعتماداً كبيراً أكثر من المعتاد وكذلك على الجواسيس ومتعهدي توريد وتقديم المعلومات لقسم العمليات الخاصة التنفيذية ، واستطاع المستر « كار » عن طريق سفرياته مع « ايرونساند » أن يتبوأ مكانته داخل مهنة المخابرات السرية .

وكانت روسيا حينذاك لاتزال تبدو على شفا حفرة التفكك ، وتم الإحاطة بالجيش الأحمر من ثلاث جبهات وأعلنت أغلبية الأجناس غير الروسية من سيبيريا حتى البحر البلطي استقلالها .

وصدرت المزاعم من أكرانيا وكريميا وسكانهما من القوازقة وأهل جورجيا ، والأرمن ، والأذربيجانيين التي تطالب بالحق في إنشاء دولة خاصة بهم ، في حين أن

سكان ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا قد أفادوا من معاهدة « بريست ليتومنسك » ومناشدة الغرب بالاعتراف بقومياتهم ، وهى المطلب التى سرعان ما أشبعتها لهم بريطانيا وأمريكا .

وتناثرت التقارير عن الفظائع والأهوال التى يرتكبها الشيوعيون وأوخم التهديدات بأسوأ العواقب التى ينتظر حدوثها من الزعماء الثوريين ، وشهد « كار » كيف أن نسيج وطنه الذى اختاره لنفسه يتفكك ، وأمن بتحذيرات المستر تشرشل ضد التهديد الشيوعى ، ومن هنا ارتبط مصيره بمصير المستر ونستون تشرشل .

وفى لندن ، تجاهل وزير الحربية الجديد مراوغات رئيس الوزراء وشن حروبه الصليبية لتدمير البلاشفة ، أما الميجور جنرال هـ . ح . هولمان ، قائد البعثة البريطانية إلى جيش « دينيكين » فقد تلقى توجيهات محددة من تشرشل بأن غرض التدخل هو تدمير الثورة ، وأصدر تشرشل أوامره بإرسال تعزيزات عسكرية فورية بحراً إلى « كريما » لمساندة قوات « دينيكين » .

وبمجرد وصولهم ، أبحر سرب بحرى من البوارج والسفن تحت إمرة الأدميرال السير « والتر كوان » إلى البحر البلطى ، وفى مجلس الوزراء قال وزير الخارجية « آرثر بلفورد » على نحو حازم بأن الالتزام الأخلاقى لبريطانيا يمنع البلاد من التخلي عن الروس الموالين لقضية الحلفاء وهم يقومون أيضاً حالياً بالقتال دفاعاً عن أرواحهم .

وقال آرثر بلفورد : لقد كنت أزاوّل الضغط على البحرية وقتاً من الزمن من أجل القيام باستعراض للقوة فى البحر البلطى من أجل تقوية وتعزيز سكان هذا الجزء من العالم ضد البلشفية .

وكانت أوامر الأدميرال « كوان » التى وضعت بريطانيا بالفعل فى حالة حرب مع روسيا ، استهدفت حصار الأسطول الروسى فى « كرونستاد » وفى أثناء مارسته لأعماله اعترض كوان « هجوماً بحرياً سوفيتياً » فى ميناء « تالينين » الواقع فى أستونيا والقوات الفنلندية أثناء تسللهم خلف خطوط البلاشفة ، وهبطت القوات البريطانية فى « لاتفيا » لتأمين استقلال الأمة .

كما قامت هذه القوات بحماية الجنرال السير « هيربرت جوف » وبعثته العسكرية التى تنتمى إلى جيوش الحلفاء فى فنلندا ، وكانت تستهدف تنظيم الروس البيض تحت

قيادة الجنرال « نينكولاى يو دينتش » الذين كانوا يخططون من أجل عبور الخليج إلى فنلندا أو أسر القديس بطرس .

وتلقى « جوف تعليمات قبيل مغادرته لندن بعدم التدخل في الشؤون الروسية ، غير أن هذه التعليمات تناقضت مع أوامر ونستون تشرشل وزير الحربية الذى طالب وهو أمام الخريطة الضخمة التى تبين جيوش الروس المتجهة صوب موسكو ، طالب الجنود بالاسراع فى تحقيق انتصارهم ، فكان أن اتبع « جوف » تعليمات وأوامر تشرشل غير أنه لدى وصوله واجهته صعاب جمة ، حيث رفضت الحكومات الجديدة لجمهوريات البحر البلطى أن تساعد الحرب الصليبية للحلفاء ضد البلشفية ، خشيت ان تعرض للمخاطرة اعتراف لينين باستقلالهم وهو الأمر الذى اكتسبوه بعد عناء ، ولقد كان الجنرال هذا شأنه شأن معظم القياصرة كان رجعياً وأكثر استعداداً للتعاون مع الجيوش الألمانية التى يقودها النازيون المتزمتون الذين كانوا لايزالون يحتلون الدول الواقعة على البحر البلطى .

وفى شتاء عام ١٩١٩ ، تعرضت معركة روسيا إلى الوصول إلى طريق مسدود ، غير ان الاتجاهات السياسية كانت متشددة ، إذ كان أولئك القوم فى الكريملن على يقين من أن الحكومة البريطانية وجهاز المخابرات السرية البريطانى مصممين على إزالتهم بالقوة وكانت نظرة واقعية إذا ماتدبرنا الخطاب الذى أفضى به الأميرال « هول » إلى كبار معاونين العسكريين عشية تقاعده كمدير للمخابرات البحرية حيث قال :

وأريد أن أحذركم ، لقد كانت المعركة صعبة ومريرة ويتعين علينا الآن مواجهة الخوف ، وعدواً لا مثيل له فى الصرامة والشدة ، عدواً متوحشاً سوف تنتشر قوته الشريرة حول العالم أجمع ، إن هذا العدو هو روسيا السوفيتية .

أما تشرشل وخوفه المرضى من روسيا وقناعته بأن العمليات الخاصة إنما هى أسلوب من أساليب الحرب العسكرية والسياسية الملائمة لبريطانيا خاصة ، فقد شجع السير « مانسفيلد كامينيجز » على الخوض فى المخاطر من أجل احداث وفاة لينين .

وفى عام ١٩١٩ ، كان « بول ديوكس » أحد الذين حلوا محل « ريللى » فى روسيا ، وتسلموا إلى روسيا البلشفية عن طريق « ميرمانسك » فى عام ١٩١٨ كان تواقاً للهروب والفرار .

واستطاع « ديوكس » تهريب معلومات إلى لندن عبر هيلسنكى ، وكان متخفياً علي

طوال العشرة أشهر الماضين علي ذلك ، في زى جندى بالجيش الأحمر أو حتى عميل للـ « تشيكا » ، غير أن تخفي المستر « ديوكس » تعرض للهتك وصار هدفا للقناصة من جهاز مخابرات الـ « تشيكا » الذين حاولوا اصطياده .

وفي أثناء الأشهر التي كان فيها « كامينجز » يرسو في أحد الموانى الفنلندية قبالة قاعدة « كونستاد » البحرية اتصل الكابتن « اوجست آجار » على توربيد من سرب « كوان » وأغرق بنجاح الطراد الروسي « اوليغ » ، ابتهاجاً بشجاعته وإتقانه تنفيذ العملية شن « كوان » عملية مركبة من القاذفات البريطانية ، وأسطول صغير من الزوارق البحرية الساحلية ضد الأسطول الروسي في الميناء .

أما الخسائر الروسية فقد انحصرت في سفينتين حربيتين غرقتا ، وتدمير وتحطيم الغواصات واستمرار القوات الروسية على القيام بتمرد مسلح ضد البلاشفة ، مما أدى إلى حدوث المخاوف المتجددة في موسكو واكتساب امتداح تشرشل وإشادته بالانتصارات .

ولدى عودتهم المنفصلة إلى بريطانيا ، تم استقبال كل من « آجار » و « ديوكس » استقبال الأبطال ، واستقبل الملك جورج الخامس كلاً منهما ، وتناول « ديوكس » الغداء مع تشرشل وأنعم عليه فيما بعد برتبة فارس ، في حين أن « آجار » حصل على نيشان « صليب فيكتوريا » وهو وسام بريطانى لأبطال الحرب ، إلا أن انتصارهم لم يدم طويلاً حيث أن الثورة المضادة بدأت في صيف عام ١٩١٩ في الزوال .

وعانى « يودينتش » من سوء الإدارة المتفشى ونقصان العون البريطانى وانتهى هجومه القادم من فنلندا عن طريق التسلل خلال أحراش « بتروجراد » انتهى نهاية دموية وهزيمة نكراء ، وفي سيبيريا انتهى التقدم الزاحف للروس البيض جنوب موسكو ، على الرغم من المساندة الأمريكية واليابانية والتشيكية نهاية مأسوية ، كتب اللورد هاردينج في مضبطة وزارة الخارجية يصف هذه الهزيمة بأنها « مشروع غير ذى مصداقية على الإطلاق » وتواكب ذلك مع الانسحاب البريطانى والأمريكى لآخر قواتهم هناك ، وفي الجنوب فشل كذلك زحف جيش الجنرال « دينيكن » وتوقف فجأة ، وخارت قوى جيشه بسبب الفساد الضارب في صفوف قواته وتفشى الخلافات والمشكلات الداخلية ، وسرعان ما تراجع جيشه إلى الوراء .

وفي الشمال تمردت قوات جيش « إيرونسايد » وانضم الكثير من الروس إلى

البلاشفة ، وتم تكليف المستر « كار » للقيام بالترجمة للجنة التي تولت التحقيق في اغتيال الضباط البريطانيين ، وصدر أمر الجنرال بالانسحاب يوم ٢٧ سبتمبر وانتهت جميع خطط الحلفاء للإطاحة بنظام البلاشفة نهاية مشينة ، وأنفقت بريطانيا ما يزيد عن اللازم في حروبها الصليبية ضد البلاشفة وبأكثر مما فعل سائر الحلفاء مجتمعين .

وهكذا فإن الفضل في ضمانه استقلال دول البحر البلطى وفنلندا إلى لويد جورج ، فضلاً عن فضله في إيجاد الفرصة المناسبة لاستقلال القوميات الروسية . أما ونستون تشرشل فقد كانت فلسفته هي أن الدول الكبرى في أوروبا سوف تندم بسبب فشلها في سحق الهلاك البلشفي في مركزه وقبيل نموه نمواً ضخماً .

وكان كل من ضباط وزارة الخارجية البريطانية والجنرالات الذين عادوا من روسيا متفقين على أن الوحشية والاستبداد والشمولية التي اتصف بها ملامح الجنرالات الروس البيض الذين حاربوهم « لم تكن تختلف عن البلاشفة في شيء » .

وفي خريف عام ١٩٢٠ ، سقط ١٥٠,٠٠٠ روسي أبيض ، هم بقايا جيش « دينيكين » سقطوا فريسة للأمراض والفوضى ، وتم إجلاؤهم بمساعدة البريطانيين إلى شبه جزيرة « غاليبولي » .

وسرعان ماتفرقوا في شتى البلاد وأنحاء الأرض ، حيث صاروا مطلباً لأجهزة المخابرات الغربية ليصبحوا عملاء في المعركة المستمرة من أجل تقويض النظام الشيوعي الحاكم .

وكان من بين هؤلاء البريطانيين الذين تم إجلاؤهم مع جيش « ايرونساید » المستر « كار » وعائلته . وكان المستر « كار » يشترك مع آلاف المعجبين بالشعب الروسي ، في أنه تعرض للتجريح والأذى النفسى بسبب الفوضى الضاربة التي تسببت فيها الثورة الحمراء ، إذ كانت شخصيته تتصف بالمحافظة وشدة الحساسية .

وبمرور الوقت ، دمر جيش « ايرونساید » عتاده ومعداته وألغى مهمته وتخل عن أهدافه ، أما المستر « كار » فقد كان قد استقر على خوفه البالغ ومقته واشمئزازه من حمامات الدم والفوضى التي تسببها البلاشفة .

وكان « كار » يضمراً فضلاً عن ذلك الشعور بالظلم الفادح في داخلات نفسه ، ذلك

أن جميع مدخرات عائلته المودعة في أحد البنوك الروسية تعرضت للضياع ، أما أبوه فقد تعرض للبطالة والفقير .

وكان طبيعياً أن ينجذب « كار » إلى السير في مسار من شأنه أن يوفر له فرصة تسوية الحسابات والهروب من البطالة . وجعل يتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال ، وهى أمور تدل على ذكائه وقدراته . وبدأت الفرص أمام طموحاته محدودة حتى تقابل والده مصادفة في أحد النوادي مع « جورج ويسكيمن » نائب القنصل البريطانى السابق في « أرشانبجل » . وتساءل « ويسكيمن » عن عمل الشاب « كار » واقترح أن يصبح مترجماً في القنصلية البريطانية في « هلسنكى » .

وتم استدعاء « كار » لمقابلة في « تشارنج كروس » أحد الحوانيت وتقابل هناك مع « ريلى لى ماى » الذى قدمه إلى القائد إرنست بوليس . وتركزت محادثتهم في مؤخرة الحانوت حول الخلفية التى يتمتع بها واللغات التى يتقنها . وغادر « كار » المكان بدون أية فكرة أو ظن في أن « بوليس » كان ممثلاً لجهاز المخابرات البريطانية السرية في روسيا أثناء الحرب .

وظل على جهله حتى عند مقابله مع « مانسفيلد كامينج » في شقة المستر «سى» فى حى « وايت هول كورت » بالقرب من وزارة الحربية . ولم يثن العرض المالى البخس « كار » عن رغبته فى العمل ، إذ عرض عليه رئيس جهاز المخابرات البريطانية السرية دخلاً محدوداً قوامه ٥٠٠ جنيه استرليني سنوياً ترتفع إلى ٧٥٠ جنيهاً فيما بعد .. ويقول « كار » بعد السابعة والستين إنه بعد بضعة أيام من عمله فى ترجمة تقارير العملاء خلف غرفة الرقابة على جوازات السفر فى هلسنكى ، تعرف على الطبيعة الحقيقية لواجبات عمله .

وكان « كار » شأنه شأن معظم ضباط المخابرات السرية البريطانية يعتبر أن المكاسب المادية غير ضرورية . وكان يستحهم الدافع والشعور بواجب الخدمة التى قد تجعل منهم أسطورة فى حياتهم المعاشة .

وبعد أشهر قلائل من تعيينه ، تكشف عدم استقرار حالته العملية حينما شهد المستر « كامينج » يتصرف تصرفات شديدة القسوة ضد المستر « ثيرنون كيل » ، رئيس جهاز الـ « ام اى ه » أو ( جهاز المخابرات العسكرية للأمن القومى البريطانى ) . فكان

ذلك رمزاً لكفاح جهاز المخابرات السرية البريطانية للبقاء في ظل ميزانية تم تخفيضها إلى النصف ضغطاً للإنفاق .

ولما أصبح « ريللى » ، و « بروس لوكهارت » و « ديوكس » خارج روسيا ، يجمعون المعلومات الاستخبارية حول البلاشفة ، تحولت المهام التجسسية إلى أمر بالغ الخطورة والهلاك .

فقد كان الأجانب تحت الرقابة المستديمة وحتى فرص الدبلوماسيين في العمل الاستخبارى صارت مقيدة في أعقاب إغلاق القنصليات في « ليننجراد » و « أوديسا » من جانب الحكومة السوفيتية . ولهذا السبب ، سعى « كامينج » إلى الحصول على حلفاء مدينة « أوديسا » المطلة على البحر الأسود ، لإقامة القواعد للعملاء .

وكان وضع هؤلاء الموظفين يعتمد على الاتفاق مع وزارة الخارجية التى كان كبار مسئوليتها معادين أشد العداء لسوء استخدام الغطاء الدبلوماسى . وذهبوا إلى أن الجواسيس سوف يؤثرون على سلامة العمل الذى يقوم به الدبلوماسيون وسوف يضر بهم أشد الضرر .

فكان الحل هو إقامة مكتب رقابة على جوازات السفر داخل وزارة الخارجية يتمتع موظفوه ليس بالحالة أو الوضع الدبلوماسى ولا المنافع التى تدفعها الحكومة للدبلوماسيين من رواتب عالية أو معاشات . ويتم إلحاق أعضاء جهاز المخابرات السرية البريطانية إلى هيئة خاصة نظام نظم مختلفة ، كما تقرر أن يتم الدفع لهم نقداً لتجنب أية تحريات حول طبيعة عملهم ، كما تقرر أن يتسامح معهم السفير طالما أنهم قصروا أنشطتهم على نحو خاص على الحوادث الجارية في الدول المجاورة .

وعلى الرغم من أن منافسات « وايت هول » لم تؤثر على المستر « كار » إلا أنه كانت ضمن الضباط المجندين في عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ دفعة من الشباب المتقنين الذين شبوا عن الطوق في روسيا وامتلكوا ناحية الفهم لتلك الدولة وشعبها الذين وثقوا في مدى تقدمى المهنى . وصاروا معتنقين وجهة نظر تشرشل في أن الامبراطورية البريطانية صارت عرضة للهلاك مالم يتم هزيمة الشيوعية . وكان حلفاؤهم الوحيدون هم الروس البيض ضد البلاشفة .

وكان مدين أكثر هؤلاء المهاجرين أهمية أولئك الذين وافق كاننح عن تمويلهم ، بناء على نصيحة « ريللى » وصار المستر « بوريس سافينكوف » يقودهم ، وهو سفاح

معادى للشيوعية متشدد بطبيعته ومتآمر محترف ، ولقد وصفه تشرشل بكلمات مؤثرة عقب اجتماع به رتبه المستر « ريللى » فى عام ١٩٢٢ .

ووصفه قائلاً : ( وفى هذه الحالة ، ليس ثمة شىء أو إنسان يخشاه أو يخافه .. ) .  
أما المستر « ريللى » فيقول : « إن سافينكوف كان رجلاً ضمن اثنين أو ثلاثة لم يستطع البلاشفة النوم ملء جفونهم طوال حياته . وأرسل سافينكوف بالعملاء عبر الحدود الفنلندية والبولندية إلى داخل روسيا من أجل تنظيم الخلايا الاستخبارية ثم العودة مزودين بالمعلومات .

أما القائد « بوليس » فقد كان ضابط اتصالات المخابرات السرية البريطانية وعمل مع « سافينكوف » وكان « بوليس » هذا هو الذى قام بتجنيد « كار » أول مرة وفى أعقاب كارثة ١٩٢٠ ، قسم « بوليس » هذا هو الذى قام بتجنيد « كار » أول مرة . وفى أعقاب كارثة ١٩٢٠ ، قسم « بوليس » وقته بين « تالين » و « باريس » من أجل الحفاظ على الصلات مع الروس البيض ، ولكن فى عام ١٩٢١ ، تم نقله إلى هلسنكى حيث إن أهمية فنلندا أمة مستقلة منذ عام ١٩١٧ ، حينما استفادت الميزة من ثورة أكتوبر ووضعت الخاتمة لقرن من الاحتلال الروسى . وتسبب إعلان الاستقلال الفنلندى فى إحداث حرب أهلية قصيرة ولكنها قاسية وانتهت بالهزيمة لأنصار البلاشفة على أيدي المارشال « كارفون ماينوهايم » الذى سرعان ما دفع بأعداء البلاشفة إلى استخدام الدولة من أجل شن غارات ضد الثوار .

وبرغم التخفيض الحادث فى ميزانية المخابرات السرية البريطانية ، إلا أن محطة هلسنكى قد حظيت بمخصصات قدرها ٢٠,٠٠٠ جنيه استرلينى سنوياً من أجل العمليات، فضلاً عن تعيين مساعد لضابط مراقبة جوازات السفر وهو المستر هارى كار .

وفى مارس ١٩٢١ ، كان المستر كار فى صميم وقلب المحاولات البريطانية للإطاحة بالبلاشفة وأوشك على تبوء أعلى المراكز التى يهفو إليها قلب كل ضابط مخابرات .

وتزامن تعيين المستر كار مع توقيع اتفاقية تجارة بين الحكومتين البريطانية والسوفيتية ، وكانت بذلك أول اعتراف بريطانى رسمى بدولة البلاشفة . وعلى الرغم من أن الاتفاقية احتوت على تعهد من جانب الحكومتين بالتوقف عن ممارسة أنشطة الاستخبارات المعادية ، إلا أن هذا النص وذلك البند تم تجاهله .

ونجد أن كلاً من وزارة الحربية والادmirالية ( البحرية ) قد وصفتا الهجوم الروسي بأنه أكثر التهديدات خطورة ضد بريطانيا ، وبأنه ربما كان أكثر الأسباب وجاهة في اندلاع الحرب في المستقبل القريب حيث سوف تتورط الإمبراطورية البريطانية .

وفي هذه الظروف كانت المخابرات البريطانية السرية غير مستعدة للتقيد بالاتفاق إلا أن الجهاز الاستخباري تعرض للشلل والتعويق بسبب نقصان المعلومات والافتضاح الشديد لعمليتين قامت بهما المخابرات البريطانية ضد السوفيت .

وبعد فترة وجيزة من توقيع الدول المطلة على البحر البلطى على معاهدات السلام مع ممثل لينين عام ١٩٢٠ والتي تم الاعتراف بمقتضاها بسيادتها على أراضيها ، حصلت المخابرات السرية البريطانية على تسهيلات في « ريجا » غير بعيد من السفارة الضخمة الواقعة في « رينيس بوليفارد » .

وفي جو قوامه الأمن النسبى استطاع عدد كبير وأجيال كثيرة من ضباط المراقبة على جوازات السفر والمحققون العسكريون ، استطاع كل هؤلاء مع لاجئى الروس البيض ، وعاونهم في ذلك خير العون البوليس والعسكرية التابعة لجمهورية لاتفيا ، ضد الشيوعيين عبر الحدود .

وأضحت السفارة البريطانية مقراً معروفاً لجمع المعلومات وقاعدة للضباط البريطانيين لتعلم اللغة الروسية . ويقول « لينسى نيكولون » : إن المدينة كانت بمثابة المرتع الخصب للتأمر والجريمة ... وملاذ عشرات العملاء منعدمى الضمير الذين ينتمون إلى كافة القوميات والذين بمقدورهم بيع خدماتهم ومعلوماتهم الاستخبارية لمن يدفع المال الأكثر بدون أدنى ندم أو وخز ضمير ، ثم إعادة بيعها إلى الطرف المعادى وبسعر أعلى .

وتم تأسيس شبكة مماثلة في « تالين » وقام بذلك الكولونيل روبرت ميكليجون ، وهو ضابط سابق في الفيلق الملكى البريطانى ، وكان قد خدم في جيش التدخل وفي عام ١٩٢١ ، جند ميكليجون رجلاً ألمانيا كعميل وكان يدعى « جريجورى » زعم أنه يستطيع الاطلاع على الأكواد السرية في السفارة السوفيتية ، وكانت آنذاك تحت سيطرة وإمرة - كيم ليتفينوف .

أرسل ميكليجون حوالى ٢٠٠ برقية من أكواد ليتفينوف إلى لندن اتضح منها أنه

على النقيض من نصوص وبنود اتفاقية التجارة ، كان السوفيت يمولون « سين فين » في أيرلندا ومثري الشغب المعادين للإمبريالية في الهند . وسرعان ما تأكدت الحكومة البريطانية من صحة المعلومات عن طريق مشاهدتها للقلاقل التي وقعت هناك وأرادت الحكومة البريطانية التثبت قبل أن ترسل الحكومة باحتجاج ، فوجدت أن المعلومات والبرقيات التي قدمها ميكليجون مزورة .

وأدى هذا الاكتشاف إلى تكثيف الضغط على المستر « كامينج » لإنتاج المزيد من المعلومات الاستخباراتية مقتنعة أنها لاتزال موجودة لإثبات أن السوفيت كانوا في حقيقة الأمر ينظمون ويملون عدداً متزايداً من المشاغبين ومثري القلاقل المعادين للبريطانيين ، وبخاصة في الهند .

وتلقى كامينج من عميل المخابرات السرية البريطانية في برلين نسخة من وثيقة سرقت من مكتب الممثل السوفيتي أكدت على وجود مؤامرة سوفيتية لزعزعة استقرار الحكم البريطانى في شبه القارة الهندية . وعلى الفور ، بناء على أوامر وزارة الخارجية البريطانية قدم الممثل البريطانى في موسكو الدليل المدين ووثيقة الإدانة وقدم احتجاجاً شديداً للمسئولين السوفيت .

وقدم السوفيت الرد بسرعة مساوية وبصورة مؤثرة . وأثبت الروس أن الوثيقة ما هي إلا أوراق الدعاية الروسية البيضاء الموزعة في ألمانيا . وفي تلك اللحظة ذاتها ، قدم مصدر قوى جديد نفسه وأعرب عن استعداده لتقديم المعلومات لجهاز المخابرات السرية البريطانية . ووصل « الكسندر ياكوشيف » ، وهو مهندس رى وصل إلى « تالين » قادماً من موسكو . وكان معروفا للروس البيض كعنصر تنفيذى لمجموعة سرية تعمل من تحت الأرض وتنادى بعودة الحكم القيصرى إلى البلاد .

وسافر من « تالين » إلى « برلين » و « باريس » واقترب بحذر من زعماء مهاجرى الروس البيض وشرح لهم كيف أن الاساس قد أقيم عبر الحدود في روسيا من أجل إنشاء منظمة مناهضة للشيوعية لتدمير « قوى الظلم » .

وأوضح أن « هيئة الائتمان المحلى في موسكو » ماهى إلا بنك جديد ثم أسسه الشيوعيون للأعمال الدولية ، والأمر غير معروف للبلاشفة هو أن الملكين من أنصار القياصرة الذين كانوا يستخدمون الاسم المستعار « ترست » كانوا بالفعل قد اخترقوا

البنك . وبرغم أن بعض الزعماء المهاجرين كانوا شكاكين وارتابوا في « ياكوشنب » إلا أن الآخرين شجعتهم تقاريره الخاصة بالمقاومة .

وتزايد إعجابهم بالعمل الجديد حيثما شاهدوا السر الذي يستطيع به السفر عبر الحدود جالباً المعلومات والرسائل بأن البلشفية تكافح من أجل البقاء . ولما تواصل التدفق المعلوماتي ، تحقق المهاجرون أيضاً من قضية استغلال هذا الرجل الجديد من أجل إنشاء وإقامة مركز سياسي أقوى .

وتم تقديم إنتاج الشبكة إلى جهاز المخابرات البريطانية السرية ووكالات المخابرات الغربية الأخرى . لقد كانت لحظة حظ وسعادة .

أما وقد تعرضت المصادر الخاصة بجهاز المخابرات السرية البريطانية ، فقد صار « كامينج » منجذباً صوب الفرص المغربية التي عرضها « ياكوشيف » . وكان فريق يطالب بتوخى الحذر ، وكانوا على يقين من أن أجهزة الاستخبارات البولندية والفرنسية والفنلندية جميعها قبلت مصداقية « ترست » وصارت « ترست » هذه المصدر الخصوصي للغرب لتزويده بالمعلومات الاستخبارية الموثوق فيها حول الأحوال داخل روسيا ، وهو أمر طرحه الروس البيض وأكده « بويس » .

على أية حال فإن « ياكوشيف » الذي كان مجهولاً لدى أهل المنفى ، تم إلقاء القبض عليه ، قبل أشهر من وصوله إلى « تالينين » وزجوا به في السجن في « لوبيانكا » ولم يتم إطلاق سراحه إلا بعد أن يقنع « دزرزنيسكى » بمهارة أن يقنع المهندس ليصبح عميلاً من البلاشفة . وكان « دزرزنيسكى » يسعى إلى اختراق المنظمات الروسية البيضاء التي كانت تتآمر للقيام بثورة مضادة في الغرب .

وبالنسبة إلى المكتب السياسي السوفيتي ، بدأ مليون روسي في المنفى ، وبخاصة البقايا المنظمة التابعة لجيش « دينيكين » تمثل تهديداً محتملاً . وكانت أسباب وجيهة تثير مخاوف القيصر من أن هؤلاء القوم الذين يعيشون فيما وراء الحدود يدبرون عمليات التخريب وإثارة الفوضى داخل روسيا . كتب « ف . ترياندافيلوف » ، أحد كبار مسئولى جهاز مخابرات الـ « تشيكا » عام ١٩٢٢ يقول : « إننا بصدد مراقبة روسيا الثانية هذه » . وكانت تكتيكات الـ « تشيكا » مماثلة لتلك التكتيكات الخاصة بجهاز مخابرات « أخرانا » الذي كان يعمل في عهد القيصر . والشخص الذي أسس البنك ومؤسسة « ترست » هو « فيليكي دزرزنيسكى » من أجل اختراق جماعات المنفى .

كان الهدف الرئيسي للمستتر « ياكوشيف » هو « بوريس سافينكوف » الذى كان قد دعم « البارون بيوتر رانجيل » ، وانضوى تحت لوائها ١٥,٠٠٠ - ٢٠,٠٠٠ رجل ، وقادها الجنرال « اليكسندر كوتيبويوف » . وأخذ « لويتيبوف » يدرّب المهاجرين صغار السن للعمل العسكرى ضد الشيوعيين والأنشطة السرية داخل روسيا . وفى أثناء ١٩٢٣ ، تقابل « ياكوشيف » بصورة دورية مع « كويتيبوف » ، وأقنع المهاجر بأهمية مصادر « ترست » وطور تدريجياً علاقات جيدة ووطيدة مع بوريس سافينكوف . وبحلول عام ١٩٢٤ ، حينما أصبح الـ « ترست » المصدر الرئيسى لجهاز المخابرات السرية البريطانية لاستقصاء المعلومات ، تلقى « سافينكوف » سلسلة من الرسائل نتيجة لاتصالاته داخل روسيا قالت بأن الأحوال صارت مثالية للانقلاب المضاد ، وأن الـ « ترست » استطاع حشد شبكة مسلحة وذات نفوذ ضد البلاشفة .

وقبل « سافينكوف » الدعوة بعد اجتماعه مع « بويس » وارتحل مع « ياكوشيف » إلى الحدود السوفيتية . وبعد العبور ، سرعان ما تم إلقاء القبض عليه . كما وصلت أخبار القبض عليه واعترافاته بالتجسس أمام محكمة صورية إلى الغرب سريعاً . ونظمت السلطات المقابلات الصحفية معه للصحفين القادمين من أوروبا الغربية إلا أن ظروف القبض عليه لم يتم الكشف عنها . وبعد ستة أشهر من محاكمته ، أعلن السوفيت عن انتحاره فى سجن « لوبيانكا » .

عصفت الأخبار السيئة بـ « سيدنى ريللى » إذ كان قد باع بنجاح لجهاز المخابرات البريطانية فى العام الماضى رسالة كتبها على ماقيل « جريجورى زينوفيف » ، إلى أعضاء الحزب للإعداد من أجل الثورة ضد الحكومة البريطانية . وتأكد المستر كامينج من صدق وحقيقة الرسالة ، وكذلك وزارة الخارجية ورئيس الوزراء الذى ينتمى إلى حزب العمل البريطانى ، ثم تم نشر الرسالة فى صحيفة الـ « ديلى ميل » مما أدى إلى اكتساح حزب المحافظين الانتخابات وصلوا إلى الحكم اعتماداً على العداء المستحكم ضد الشيوعيين .

وفى حقيقة الأمر ، كان الخطاب مزوراً وأكد القناعة السوفيتية بأن المخابرات السرية البريطانية وراء هذه الخيانة . وسحقت نشاطات « ريللى » حينما عرف بالقبض على سافينكوف واعترافاته . وشن بعد ذلك كبير رجال الجاسوسية « ريللى » على مدار

سبعة أعوام ، شن حرباً ضارية وخطيرة ويبدو أنها كانت غير ذات جدوى ضد الشيوعيين ، مما أدى إلى استنفاد واستنزاف الثروة استنزافاً مخزياً .

وفي أوائل عام ١٩٢٥ كتب « بوليس » يقترح أن يضطلع بعملية أخرى داخل روسيا ، فكان « ريللي » آنذاك متردداً على نحو غير محدد فلم يرد . وأخيراً سافر إلى فرنسا في أعقاب العديد من التوسلات والتضرعات لمقابلة « بوليس » .

وكشف رجال المخابرات السرية البريطانية بعضاً من المعلومات التي شكلت مصدراً للتعذيب ، وكانت تستحق مع ذلك التحرى بشأنها ومصداقيتها وكانت تتعلق بوجود عداء دموى في الكريملين عشية وفاة « لينين » .

وعلى الرغم من أسر « سافينكوف » إلا أن « بوليس » أخبر « ريللي » بقناعته أن « ترست » بمثابة « الحركة ذات القوة والنفوذ الهائل داخل روسيا » وكان يريد التيقن إذا كانت المنظمة لاتزال موضع اعتماد ام لا . وحث « بوليس » المستر « ريللي » للقيام باتصالاته المبدئية مع ممثلي « ترست » في هيلسنكي مستخدماً المساعدات والجهود الطيبة التي قام بها مساعده الجديد ، السيد « هارى كار » .

وفي ٢١ سبتمبر ١٩٢٥ ، وصل « ريللي » إلى هلسنكي واجتمع مع « احد الشباب الأذكاء جداً الغيورين على مصلحة العمل » ، وهو الذى قدمه إلى « نيكولاى بوناكوف » ممثلاً عن « الترست » .

وبعد ذلك بأيام ، تبذرت أية شكوك كان من المحتمل أن تساور المستر « ريللي » . وكتب ذلك الجاسوس رسالة إلى زوجته قال فيها : « ثمة شىء جديد للغاية وفى منتهى القوة ويستحق التنبه إليه يحدث الآن فى روسيا ، واختتم الرسالة قائلاً : إننى بصدد المغادرة اليوم ، إذ ليس هناك أدنى خطر على الإطلاق .

وبعد توديعه المستر « كار » سافر إلى الحدود السوفيتية لمقابلة مجموعة قدموا أنفسهم على أنهم روس بيض . ووصفت الجماعة التي كان يتزعمها « ياكوشيف » مدى القوة والنجاح الذى وصلت إليه « ترست » واقترحت سفر المستر « ريللي » لمدة ثلاثة أيام إلى موسكو لمناقشة الخطط مع زعماء « ترست » .

واختفى « ريللي » الذى كان يصاحبه بعض المرشدين ، عبر نهر « سيستوى » إلى داخل روسيا . وبعد ذلك بأسبوع ، كتبت صحيفة « إزفيستيا » تقاريراً صحفية عن اعتراض وموت ثلاثة عملاء على الحدود الروسية الفنلندية . وبعد ذلك بثلاثة أشهر ،

أعلنت صحيفة « التايمز » عن وفاة المستر « ريللى » .

ولقد كانت وفاة « ريللى » بالنسبة إلى المستر « سى » ، وجهاز المخابرات السرية البريطانية بمثابة المفجعة للعصر الذهبى للاستخبارات ، والأسوأ من ذلك أنه أفضى إلى تشويه سمعتهم وضياع مصداقيتهم في كل من وزارتى الخارجية والحربية .

وبناء على الافتراض بان الـ « تشيكا » أو « او جى بى يو » ( وهو الاسم الجديد للمخابرات الروسية الذى حل محل جهاز استخبارات « تشيكا » ) عرفت من « ريللى » معلومات كافية من شأنها إفساد جميع عمليات المخابرات البريطانية في روسيا ، ثم نقل المستر « بوليس » بسرعة إلى « تالينين » ثم تقاعد بدون توجيه الشكر له . أما خليفته في « هيلسنكى » فقد عينه مستر « سى » الجديد .

وكان نجم المستر « كار » قد ارتفع في عالم الجاسوسية عن طريق عمليات الغش التى كان يقوم بها ضد السوفيت . واستطاع السوفيت عن طريق جهاز مخابراتهم الجديد « أو - جى - بى - يو » أن يخرقوا عمليات جهاز المخابرات السرية البريطانية ليس فحسب داخل روسيا ولكن أيضاً في جمهوريات البحر البلطى وفنلندا وفرنسا .

أما ثواب « دزرزنسكى » فقد تمثل في المزيد من الاستخبارات ، ليس هذا فحسب ، بل وأيضاً المال . ذلك أن كثيراً من المال المدفوع الذى قدمته أجهزة المخابرات الغربية إلى « ترست » تم استخدامه في تمويل الكثير من عمليات جهاز « أو - جى - بى - يو » الأخرى وكان الدرس القاسى الذى تعلمه « كار » هو أنه لم يضع ثقته في أى مخلوق .

واستثار السوفيت الخوف ، وكانت أجهزة مخابراتهم في حاجة إلى اكتساب الاحترام . وبالنسبة إلى « كار » كان الأمر يتطلب السرية ، كما أن ولعه بالسرية أدى إلى التسبب في سلسلة من أعمال السخرية منه ، ذلك أن رفاقه وزملاءه جعلوا يسخرون من هذا التصرف . لكن « كار » ظل منيعاً حصيناً ضد بذاءاتهم .

كان الاعتماد على المهاجرين يكلف الكثير ، وأصبح المهاجرون ومن بعدهم جهاز المخابرات السرية البريطانية مهتمين وشغوفين إلى الاستماع إلى معلومات تؤكد رغباتهم ونزعاتهم ، ولكنهم جميعاً سقطوا ضحايا حمقى لخداع الذات . وضاع الأمر وكذلك الدروس النافعة التى كان يتعين أن يفيدوا منها .

ولحقت السمعة السيئة جهاز المخابرات السرية البريطانية وقيل : إنه الهواة متفكك

ومشوش ، يفتقد إلى المقدرة على تحليل المعلومات الاستخباراتية التي يتلقاها أو تحليل صدقها أو عدم تلاعب وخذاع مصادرها . وهكذا فقد وقع على الجيل الجديد مهمة بناء الشبكات الجديدة بناءً كاملاً ليكون خالياً من أية صلات بالمصادر المطعون فيها . وبذلك لم يكن يساور المستر « كار » الشك شأنه في ذلك شأن ضباط المخابرات السرية البريطانية حول أهميتهم وخطورة شأنهم .

وكان بين أفراد خلية ضباط جهاز المخابرات البريطانية السرية المجندين مع المستر « كار » ، المستر « هارولد » والمستر « ارش جيبسون » وكلاهما صارا صديقين حميمين له . وأصبح « هارولد » رئيساً لمحطة في بخاريسست وبراغ وعهد له بتشغيل وإدارة أكثر الجواسيس نجاحاً داخل الاتحاد السوفيتي إبان زمن الحرب .

وعمل المستر « أرشى » في المقر الرئيسي لجهاز الاستخبارات البريطانية السرية أولاً في « وايتهاول كورت » ثم بعد ذلك حينما تم تحويله إلى « برودواي » في سانت جيمس . أما المجموعة الثانية فهم الأخوة « سيليم » الذين امتلكوا مصنعاً للجنة في استونيا ، على الحدود مع روسيا وفنلندا ، كما عمل في « ريجا » .

والثالث هو القائد « ويلفريد دندريل » المولود عام ١٨٩٩ ، الذي اتخذ أولاً من القسطنطينية مقراً له ثم باريس واستطاع بالتعاون مع أجهزة المخابرات الغربية أن يقوم بأعمال كثيرة . وغذى من هذه المجموعة « كويكس سينكلير » الذي عرف عبر لندن بأنه رجل « معادى للبلاد عداء هائلاً » .

وفي كلمة ألقيت في ٦ مايو ١٩٢٥ ، حدد ستالين بصراحة بريطانيا على أنها الدولة المثيرة والمتسببة في التدخل ، وأن امبراطوريتها لاتزال تحيط بربع أراضى الكرة الأرضية ، وأنها العدو الرئيسي والأول لروسيا . غير أن « سنكلير » عانى من الإعاقة . وعلى الرغم من أن رجاله الذين جندهم كانوا مخلصين ، إلا أن جهاز المخابرات البريطانية ، لم يستطع التفوق على أجهزة الاستخبارات الروسية العملاقة .

وفي عام ١٩٢٧ ، انفجرت أزمة جديدة في العلاقات الانجليزية السوفيتية وكانت القضية هي تجديد معاهدة التجارة ، وهي المعاهدة التي طالب معظم الساسة المحافظين بإلغائها . وكشفت المناقشات البرلمانية عن تركة ثقيلة من الشكوك والريبة . وحدث عشية العثور على خطاب « زينويفا » الذي كانت مصداقيته لم تفقد بعد ، طالب الساسة البريطانيون بإيقاف العلاقات الثنائية عقاباً على التخريب الشيوعي .

وفي الكريملن اقتنع ستالين ومستشاروه من أن التوتير الناشب من الممكن أن يصبح مقدمة فحسب للتدخل الجديد أو حتى الحرب . وتضاعفت مصادر القلق كما حدث في الأشهر الأولى من ذلك العام ، حيث شهد زيادة مفاجئة في الأنشطة التي خططتها أجهزة الاستخبارات البريطانية .

وفي مايو ١٩٢٧ ، شنت « سكوتلاند يارد » غارة ضد « اركوس هاوس » في لندن ، وهو مقر الوفد التجارى السوفيتى الذى حامت حوله الشكوك بأنه مركز التخريب الذى تنفذه أجهزة « او - جى - بى - يو » للاستخبارات السوفيتية . وفي وقت لاحق ، زعم المسئولون الروس أنهم رعايا لأعمال البحث والتحرى والاستقصاء الشخصية المهنية .

وردت الحكومة البريطانية بأن عمليات الاستخبارات الروسية كشفت عن الدولة المدينة وكيف أن الـ « كومينتين » يتأمر لإحداث تشويه مستديم عبر أرجاء الامبراطورية . وبعد ذلك بتسعة عشر يوماً ، قطعت الحكومة البريطانية رسمياً العلاقات ، وهو أمر شجع المخابرات السرية البريطانية على العودة إلى شن هجماتها وتنفيذ عملياتها .

وحدث في نفس ذلك الأسبوع أن عبرت مجموعة من ستة رجال ونساء ، هم أعضاء فريق المكافحة التابع للمستر « كويتوف » عبرت بمساعدة المستر « كار » الحدود من فنلندا إلى روسيا . وانقسم الفريق الذى كان مسلحاً ومزوداً بالمتفجرات إلى مجموعتين شقتا طريقهما صوب موسكو وليننجراد . وكانت نواياهم هى قتل المسئولين العاملين في جهاز المخابرات الروسية المعروفة باسم « او - جى - بى - يو » بنفس روح التفاءول التى كانت محركاً للعمليات السابقة التى قامت بها أجهزة المخابرات السرية للدولة البريطانية .

وفي أعقاب زرع القنابل التى راح ضحيتها الكثير من أرواح العاملين في الاستخبارات السوفيتية فضلاً عن المدنيين الأبرياء ، لقي ثلاثة عملاء مصرعهم في كمائن غير أن البقية عادت .

وبعد ذلك بفترة وجيزة ، تم اغتيال السفير السوفيتى في بولندا « بافل فويكوف » وهو أحد البلاشفة الذين تردد تورطهم في اغتيال القيصر وعائلته ، وذلك أثناء تجوله في أحد شوارع وارسو . واقتنعت مخابرات « او - جى - بى - يو » بأن البريطانيين هم الذين

كانوا يدبرون مؤامرة أخرى معادية للسوفيت وشنوا مكيده لأسر ما أسموه أفراد الطابور الخامس .

وقالت الصحف السوفيتية أن حوالى مائتى عميل بريطانى وبولندى تم القبض عليهم وأن فريق أجهزة المخابرات البريطانية كان يتفقد المنشآت العسكرية في دول البحر البلطى توقعاً لحدوث انفجار ما . وفي الأسابيع الأولى من يونية ١٩٢٧ ، بدت شكوك الكريملن لها مايبرها للمرة الثانية .

وأرسل « كمويوف » أربعة فرق أخرى من رجال حروب العصابات ، تشجعاً بالنجاحات الأولى المتحققة ، أرسل بهم عبر الحدود الفنلندية لاغتيال المسئولين الشيوعيين . وبحلول شهر أغسطس ، كان معظم المغيرين ( أفراد الغارة ) قد تعرضوا إما للقتل أو الأسر . وأكدت السلطات السوفيتية في موسكو - التي تولت سلسلة المحاكمات - أن هؤلاء الرجال تلقوا المساعدات من أجهزة الاستخبارات البريطانية والبولندية .

وقال نائب رئيس مخابرات الـ « او - جى - بى - يو » ، في أحد المؤتمرات الصحفية غير المعتادة . إن هذه المؤامرة وواضح أن ليس لها جذور داخل اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وأضاف الرفيق « يوجودا » : « وإنما هى بمثابة تنفيذ لتلك المهمة التي تم تكليف المخابرات البريطانية بها وكذلك أنصار القياصرة في خارج روسيا » .

وكان صوت « يوجودا » بمثابة التقييم المعقول لتصرفات أعداء الشيوعية ولم يكن صوتاً يعبر عن جنون العظمة غير المتعقلة . وأقنع الكريملن الحكومة الفنلندية - في محاولة منه لإزالة التهديد - بطرد ممثلى القوات الأجنبية من هلسنكى ، وشن عملية اختراق ثانية اتخذت من « الـ : ترست » كنموذج لها .

وتم اختطاف الجنرال « كويتبوف » بعد ذلك بعامين في باريس واختفى للأبد . أما خليفته الجنرال « يفجينى ميللر » فقد لقي نفس المصير بعد ذلك بعشرة أعوام ، إن اختطاف « كويتبوف » عرض جهاز المخابرات السرية البريطانية للمرة الثانية للفشل في الحصول على معلومات ذات جودة وقيمة داخل الكريملن والجيش الأحمر ، وهى المعلومات التي كانت الحكومة البريطانية تتوقع الحصول عليها .

ولقد حرضت السفارة البريطانية في « ريجا » جهاز الاستخبارات السرية

لجمهورية لاتفيا ، أن تقدم خدماتها على نحو فعال لأجهزة الاستخبارات البريطانية السرية .

وتلقى « جون لوراتن » السكرتير الأول تقارير دورية من كبار المسؤولين والقادة العسكريين ، إلا أن هذه التقارير في جملتها التي قدمت إلى الساسة الشغوفين في لندن فشلت في شرح نوايا ستالين . أما سبب الفشل فهو الفكرة البائسة القائلة بأن جمع الاستخبارات والمعلومات يعتمد ببساطة على الاقتراب من الهدف أو يعتمد في زمن الحرب على إرسال العملاء والزج بهم عبر الحدود .

ولما كان ليسلى نيكسون قد أرسل بمصادر مخابراتية بريطانية إلى « ريجا » بالقرب من روسيا ، فقد كان هذا أمر يبعث عن انتظار النتائج ، غير أن هذه المصادر لم تقدم سوى القليل عما يحدث من وقائع داخل الكريملن . وفي حقيقة الأمر ، على الرغم من أن نيكلسون قد سخر فيما بعد من هؤلاء العملاء ، إلا أنه ظل زبوناً مواظباً في تلقي عروضهم .

ولم يتغير سوى القليل أثناء السنوات العشر التالية . ففي عام ١٩٣٧ ، عبر السفير البريطاني في موسكو الذي كان قد منع المخابرات البريطانية السرية من تعيين ممثلاً لها في السفارة لأن هذا سيؤدي إلى الإضرار بمهمته ، عبر عن إحباطه لوزارة الخارجية البريطانية ، وقال حيث أن الروس لا يجرءون على زيارة السفارة ، فإنه لم يتلق « أية معلومات وصارت أحوال البلاد أمراً غامضاً للغاية » .

وفي أكتوبر ١٩٣٨ أبلغ السفير مرة ثانية أنه من المستحيل الحصول على أية بادرة مما يتم مناقشته داخل أسوار ( الكريملن ) . أما محطة المخابرات البريطانية السرية في « ريجا » فقد نجحت نجاحاً ضئيلاً في ذلك . وفي عام ١٩٣٨ ، انضم إلى نيكلسون مساعد جديد لضباط مراقبة جوازات السفر وهو « كينيث بينتون » الذي نجا بأعجوبة من القبض عليه من جانب الجستابون الألمانى أو ( البوليس السرى النازى ) بسبب تجسسه في فيينا .

وقال بينتون : إن تقارير رؤسائه إلى لندن التي جاء فيها أنه وزوجته قد انكشف أمرهما ، ماهى إلا تكرارات غير ذات قيمة عن القيل والقال والشائعات والمقالات الصحفية . وكان بينتون مدرساً سابقاً ، وكان يلقي باللائمة على نقص التدريب .

وكان كل من بينتون و « كار » قد تلقيا شأنهم في ذلك شأن المجندين الاخرين

تعليمات روتينية وتعليمياً غير كامل في الاتصالات ، والاكواد والشفرة وغيرها إلا أن الأغلبية تعترف وتقر بأنهم تولوا أعمالهم ومناصبهم وهم لا يزالون جهلة بحرفتهم والمهنة الخطرة التي يعملون فيها . وكتب نيكلسون يقول : « إن أحداً لم يعلمه كيف يصبح جاسوساً ، وعقد الاتصالات مع الخبراء والحصول على المعلومات منهم بدون أن يشعروا » وذلك بعد عودته من « ريجا » .

والحقيقة هي أن أولئك الذين ينتظرون تعلم هذه المهنة التي هي بمثابة الغريزة غالباً ما يكون مآلهم الإخفاق ، ويصبحون غير مناسبين للعمل فيها . بل فضلاً عن ذلك هي مهنة المخاطر حيث أن الاحتياطات الأساسية ربما يتم تجاهلها عند حد معين . وعندما تم إخلاء السفارة البريطانية عام ١٩٤٠ ، كشف الوكيل المسئول ذو الجنسية « اللاتفية » المعروف باسم « توني » كشف عن أن رؤساءه الحقيقين إنما هم كبار رجال الاستخبارات الألمانية .

وكانت هلسنكي قاعدة استثنائية لأجهزة المخابرات السرية البريطانية ووفرت للمستتر « كار » الفرصة لبناء مجده وشهرته وسمعته . ذلك أن علاقاتها التاريخية مع روسيا واتساع رقعة حدودها المشتركة البالغة ألف ميل سمحت لأجهزة الاستخبارات التي تتخذ من فنلندا قاعدة لها أن تتمتع بالفرصة الفريدة في اختراق جارتها السوفيتية .

وكان المصدر الرئيسي للسيد « كار » هو أجهزة المخابرات العسكرية الفنلندية ، التي كان ضباطها يتلقون التدريبات على مدار مايزيد على القرن من الزمان على أيدي الروس ، وهو أمر وفر البصيرة الضرورية وحسن النظر والتدبر في الاستراتيجية الروسية . وكان من طبيعة المخابرات البريطانية وعملياتها التي اعتمدت على استعارة وشراء المعلومات من الدول المستضيفة والمجاورة وبخاصة الدول ذات الاهتمام بما يجري في روسيا ، وتكون لها المقدرة على قراءة الأحداث، الأمر الذي يجعل من مصادر معلوماتها الثقة والدقة والحدة اللازمة .

وبذل « كار » قصارى جهده لتطوير وتنمية التفاهم مع كل مصدر ممكن للاستخبارات في هلسنكي عن طريق توطيد صلاته والفوز بالحظوة عند الفنلنديين العاملين في أجهزة الاستخبارات العسكرية والعامّة الفنلندية ، وبخاصة أولئك الذين كانت لديهم الاستعدادات الكافية للمساعدة والعون . ولقد أهله لذلك تحدثه الروسية

والسويدية بطلاقة وإتقان لعبة التنس وبخاصة استعراض التقاليد البريطانية العتيده . ولقد كان الفنلنديون أعداء للسوفيت ومتعاطفين مع الألمان .

أما مساعد المستر « كار » واسمه « ريكس بوسلى » فقد كان يتحدث اللغة الفنلندية بطلاقة ، وهى إحدى أصعب لغات العالم قاطبة ، وصار صديقاً لمعظم الوزراء الحكوميين وعضواً فى الجماعات « الماسونية » الدولية مثل كبار قادة أركان الجيش والعسكرية الفنلندية .

كان « بوسلى » نقيضاً للمستر « كار » حيث كان « بوسلى » عياساً يحب الانطلاق وبهجة الحياة ويعشق الانغماس فى ملذات العيش .

وكان من بين العملاء السريين سلسلة متعاقبة من القوميات الأكرانية يتزعمهم « ستيفان ناتديرا » الذى أسس معه المستر « كار » علاقة قوية صارت زاداً له بعد ذلك فى أعقاب عام ١٩٤٥ .

وعلى خلاف « كار » لم يكن « بوسلى » يستطيع إخفاء نواياه . وكان عند تقديمه نفسه فى الحفلات ، يرفع من ياقته ، ويرشق الناس بنظراته ، ويخفض من صوته ، ويقول لمحدثيه : « لاتخبرن أحداً .. بأننى جاسوس خطير » . وكانت تلك تمثيلية محببة ، فصار يكررها وأضحى امتناعه عنها عسيراً عليه ، حتى أنه فى عام ١٩٦٤ ، حينما زار « خورشوف » النرويج قدم نفسه للزعيم السوفيتى على مائدة العشاء قائلاً : « يسعدنى تقديم نفسى إليكم .. أنا عضو فى أجهزة المخابرات السرية البريطانية » .

وجعل ثلاثتهم : المستر « كار » والمستر « بوسلى » وسكرتيرهما « إيلين داجيت » يفاخرون بأنهم كانوا المصدر الأكثر كفاءة لاستيفاء المخابرات البريطانية المعلومات منهم وبخاصة حول الاتحاد السوفيتى . وكانت هلسنكى أكثر محطات المخابرات البريطانية نجاحاً أثناء السنوات المفضية إلى اندلاع ونشوب الحرب العالمية الثانية ، وكانت بذلك تغنيهم عن إرسال سلسلة متعاقبة من العملاء غير المعتمد عليهم عبر الحدود لجمع معلومات قديمة من الفنلنديين .

وفى عام ١٩٣٩ ، فشل جهاز المخابرات البريطانى فى التنبؤ بالكثير من الأزمات ، ليس أقلها توقيع « حلف مولتوف — ريبينتوف » فى موسكو فى ٢٣ أغسطس ، غير أنه بينما كان إخفاق مخابرات بريطانيا فى روسيا لا يرجع إلى عدم المحاولة ، نجد أن الفشل فى ألمانيا نسب إلى النقاد الذين هاجموا الخوف المرضى من روسيا لدى أجهزة المخابرات

السرية البريطانية ، والخلافات الناشبة بين رؤساء أقسامها .

ولقد برهن توقيع المعاهدة الانجليزية الفرنسية مع هتلر في ميونخ في سبتمبر عام ١٩٣٨ بشأن استسلام تشيكوسلوفاكيا ، برهن للكثيرين على أن « تشمبرلين » سوف ينظر عند ظروف معينة في تحالف غير مكتوب مع هتلر ضد البلاشفة .

وفي الأسابيع التالية لعودة رئيس الوزراء البريطانى إلى لندن مادحاً ومشيداً بجهوده الخاصة في تأمين « السلام في هذا الزمان » اقترحت الحكومة السوفيتية للبريطانيين والفرنسيين احتمال القيام بعقد اتفاقية مساندة وتدعيم مشتركة ضد الألمان . ولما كان هناك كم كبير من عدم الثقة في النوايا الروسية ، نجد أن الإجابة كانت غير مشجعة .

واعتقد « تشمبرلين » بوضوح أن الاتفاق مع هتلر مقدم ومفضل على أى اتفاق مع ستالين . أكثر من هذا ، كانت الضغوط الممارسة من جانب موسكو لعقد مناقشات مفضية إلى اتفاق ، تتطلب استجابة رداً ، وأرسل تشمبرلين إلى روسيا بناء على المطالب السوفيتية الملحة ، بطريق عسكرى لعقد المفاوضات .

واقتنع تشمبرلين بأن ستالين كان يأمل في نشوب حرب بين بريطانيا وألمانيا يخرج منها السوفيت سالمين ويبرزون كقوة ، فأرسل وفداً على مستوى منخفض التمثيل غير ذى تأثير ، سافر عن طريق البحر في رحلة بحرية من أكثر الرحلات بطلاً وبدون أية سلطات تخولهم الاضطلاع بمناقشات جديدة .

ولما تدبر في سياسات العلاقات الانجليزية السوفيتية على مدار السنوات العشرين الماضية ، استنتج ستالين أن البريطانيين لم يسألوا بعد اشتياقهم للإطاحة بالبلاشفة . ووردت تقارير دقيقة من أوروبا تصف زيارة دوق وندسور المبهجة السارة إلى هتلر وعقد المباحثات على مستوى عال بين « جويرنج » والشخصيات البريطانية لصياغة اتفاقية مضادة للـ « كومينترن » .

وبالنسبة إلى ضباط المخابرات البريطانية ، الذين كانوا في معظمهم يشاركون وجهة النظر التى قالت بها الحكومة من أن أكثر أعداء بريطانيا إنما هم الشيوعيون وليس النازيين ، وهكذا كان الحكم الذى توصل إليه ستالين صائباً . غير أن البريطانيين وأجهزة استخباراتهم أخطأوا حينما تجاهلوا مقدرة ستالين على أن يبرز ويفوق أعداءه ويبرم سياسة تأمين مع هتلر .

وفي أثناء عقد المفاوضات الروسية الألمانية في الكرملن ، افترض وزير الخارجية الألماني « فون ريبينروب » أن اعزاء ستالين بعقد إبرام تحالف مع أعدائه الآخرين الألمان ، كان بمثابة الفرصة غير المتوقعة للاستيلاء على تلك الأراضي الواقعة بطول الحدود الروسية الغربية ، وهي التي تخلى عنها « لينين » في معاهدة السلام الشهيرة المعروفة باسم « بريست - ليتوفسك » عام ١٩١٨ ، وتشمل تلك الأراضي كلاً من البلدان الآتية روسيا البيضاء « بيلوروسيا » وأكرانيا ودول البحر البلطى .

واقترح « فون روبينتوب » أن تعيد روسيا ضم معظم هذه الأراضي حالة اندلاع الحرب الألمانية مع بولندا .

أما المفاوضات البريطانيون الذين أخذوا نصب أعينهم التعهدات البريطانية على مدار العشرين عاما السابقة على حماية الاستقلال الجديد للدولة الواقعة على البحر البلطى ، فقد عرضوا فحسب إمكانية النفوذ السوفيتي وليس فرض السيادة الكاملة .

واستمسك ستالين بالعرض الألماني ، وشرب الشمبانيا نخب تحالفه مع الألمان وودع الألمان أحر الوداع لدى رحيلهم ومغادرتهم إلى برلين عائدین لبلادهم . وبعد ذلك بعشرة أيام ، غزا هتلر بولندا وبعد شن الهجوم الخاطف الألماني « بليتز كريج » غير المسبوق ، أصبحت روسيا وألمانيا مشتركتين في الحدود المشتركة . أما بريطانيا وفرنسا فقد أعلنتا في نفس الوقت الحرب ضد ألمانيا .

واكتسبت محطة المخابرات البريطانية في هلسنكى أهمية جديدة في سبتمبر ١٩٣٩ ، وكان ستالين لايثق في حلفائه الألمان الجدد ، وشرع سراً في عقد المفاوضات في هلسنكى لإيقاف الزحف الألماني عبر فنلندا وحماية البحر البلطى الذى سوف يؤدي تلغيمه إلى شل الأسطول الروسى في « كرونستاد » غير أن الفنلنديين رفضوا العرض الروسى الخاص بتقديم المساعدات العسكرية وتحصين الجزر الكبرى الواقعة على البحر البلطى ومداخله ، وزعموا أن أى اتفاق من هذا القبيل سوف يضر بحياد دولتهم . غير أن ستالين لم يأبه لذلك ، حيث أفضى لهم بأنه عندما تنشأ الضرورة ، فإن هتلر لن يحترم أى حياد لفنلندا .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٩٣٩ ، وفي أعقاب انتهاء المفاوضات ووصولها إلى طريق مسدود ، أصدر ستالين أوامره بشن قصف مدفعى ودك صاروخى محدود للمناطق الساحلية الفنلندية ، وشن غارة جوية على العاصمة وإرسال الجيش السابع للاستيلاء على

هلسنكى . وتوقع الزعيم السوفيتى تحقيق النصر فى غضون أسبوع واحد . وكان يشاركه تفاؤله الليفتنانت كولونيل « فالى » الملحق العسكرى البريطانى فى هلسنكى ، الذى كان يقدم معلومات ضئيلة عن الجيش الأحمر ، واستبعد احتمال بقاء الفنلنديين أمام الغزو لما يزيد على الأيام القليلة .

أما « كار » فقد كانت له وجهة نظر أخرى ، حيث تأثرت عواطفه مما كان يكنه من حب وتقدير للفنلنديين ، ولم يكن يابيه كثيراً لاعتبارات التكتيكات العسكرية التى لم يكن يفهم منها كثيراً . وكتب يقول : إن « فالى » قد أساء الحكم على الحقائق الخاصة بالقتال فى بقاع درجة الحرارة فيها تبلغ الأربعين تحت الصفر ، وفى تلك الظروف تكون الميزة والتفوق للجودة النوعية وليس للضخامة العددية أو الكم الجرار .

وأضى « كار » يقول : إنه لن يكون ثمة انتصار كاسح والحالة هكذا وجعل يراقب حركة القتال وأرسل المعلومات العظيمة حول تكتيكات الجيش الأحمر ، وتسليحه ، وقيادته ، وقدراته ، ذلك أن الحرب المعلنة ليست أقل من استعراض عام للتفصيلات العسكرية التى تصبح فى زمن السلم أسراراً مطبقة التكتم . وبلغت خسائر الجيش الأحمر حوالى ٢٠٠,٠٠٠ مابين قتيل وجريح وفقاً لتقارير رجال العسكرية ، فضلاً عن استخبارات المستر « كار » التى اتفقت كلها حول هذا الرقم .

ولما انهار التقدم السوفيتى ، بدأت حكومة تشمبرلين فى تغيير توجهاتها . ومن هنا كتب السير « أورمى سارجنت » نائب وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، يقول : إن بريطانيا لم تعلق أى أهمية حقيقية على الوجود المستمر لفنلندا ، غير أن هذا التقييم تغير وأن بريطانيا الآن تريد استغلال الفرص الخاصة بقتال فنلندا ضد روسيا .

وهذه بمثابة اللحظة المهمة بالنسبة إلى « كار » وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت فى حالة حرب مع ألمانيا ، إلا أنه كان يعمل فى دولة تحارب وتقاتل من أجل الحفاظ على وجودها ضد روسيا . ولم يكن وحيداً فى الشعور بإحياء الحروب الصليبية ضد الشيوعية . إن السير « بول ديوكس » وصل إلى هلسنكى نيابة عن جهاز المخابرات السرية البريطانية من أجل قياس فرص الدعاية المناهضة ضد روسيا وحتى من أجل استكشاف إمكانية أن يقوم الفنلنديون بالحقاق الهزيمة المنكرة بالجيش الأحمر واحتلال « ليننجراد » .

واعتقد الضباط العسكريون والاستخباريون الفنلنديون الذين كانوا ينصتون إلى

« ديوكس » و « كار » أن المخابرات السرية البريطانية وحتى الحكومة البريطانية كانوا حلفاء أشداء وأقوياء حيث أن كلا الضابطين وصفا ، بمبالغة كبرى ، المادة الحربية الحيوية التي أرسلتها بريطانيا .

وبالنسبة إلى العمل المهني للمستتر « كار » كانت الحرب الشتوية نعمة وبركة فالعلاقات الحميمة التي تمت بين ضابط مخابرات الدولة البريطانية السرية وأجهزة المخابرات الفنلندية ، كانت بمثابة المفتاح لترقيته .

وتعرضت شبكة استخبارات فنلندا للعزلة على الصعيد الجغرافي والسياسي ، وخصوصاً وكالاتها وأجهزتها المتخصصة التي كان يديرها « رينو هالاما » التي كانت تعد مفخرة بين سائر الأجهزة الأخرى . وفي أوائل الثلاثينات ، اشترى « هالاما » من اليابان المفتاح الخاص بفك الشفرة السوفيتية خماسية الأرقام المستخدمة في الشرق الأقصى .

وفي عام ١٩٣٧ ، بدأ السوفيت في استخدام نفس الكود في الحرب ، وبالتالي ، أثناء الحرب ، مما أهل الفنلنديون آنذاك كنتيجة طبيعية من قراءة الرسائل الروسية الخاصة بسلاحى البحرية والمشاه . واعتبر هذا أمراً ذا أهمية واهتمام قصوى لدى المخابرات البريطانية لأنها في عام ١٩٢٧ ، وفي أعقاب تقديم حكومة « بولدوين » إلى الحكومة السوفيتية - رموز فك الأكواد الخاصة بالرسائل السوفيتية ... وذلك بغرض الإثبات أمام الشيوعيين أنهم متورطون في الأنشطة المعادية لبريطانيا ، كذريعة لقطع العلاقات الدبلوماسية ، مما حدا بالسوفيت إلى تغيير شفراتهم .

فكان حتماً أن يتغير رجال الشفرة البريطانيون ويعجزوا عن قراءة أى برقيات روسية إضافية . وفي عام ١٩٤٠ انكشف سر « هالاما » أمام المستر « كار » الذى شرع في توريد نهر دافق من المعلومات عن السوفيت إلى لندن .

ولم يكن « كار » يعلم بأن الفنلنديين يبيعون منتجاتهم بصفة دورية ومنتظمة ليس فحسب لمن يدفع السعر الأكبر ، وإنما لأى زبون يصادفهم ، كما أن رجال كسر وفك الشفرة الذين يعملون لحساب « هالاما » استطاعوا أيضا فك أكواد أجهزة المخابرات البريطانية السرية . إن رسائل المستر « كار » إلى لندن تم فكها وبيعها إلى الألمان .

وكان فخراً أيما الفخر للمستر « كار » نفسه أن يعجب بتدفق المعلومات التي كان

يرسل بها إلى « برودواى » . فساورت الشكوك الكولونيل « ساموسى ماكجيل » الملحق  
العسكرى البريطانى الجديد الذى وصل إلى هلسنكى فى عام ١٩٤٠ ، حول الثقة الكبرى  
التي تبديها المخابرات البريطانية فى طول وقوة المقاومة الفنلندية ضد الروس .

وأرسل « كار » بتقاريره التي جاء فيها أنه صار عرضة للاعتقاد اعتقاداً غير  
مسبب بأن المعلومات الاستخبارية البريطانية حول روسيا لم تكن غالباً صائبة . ثمة  
أسباب ضئيلة للشك فى تقييم « ماكجيل » .

وفى شهر فبراير وعلى الرغم من القتال الشديد إلا أن فنلندا هزمت من جراء  
القصف والدك السوفيتى العنيف والمتراكم . وصدر التحليل اللاحق للمعلومات  
الاستخبارية التي جمعها الملحقون العسكرون والبحريون فى أوروبا قبل عام ١٩٣٩  
يقول بأنه على الرغم من أخطائهم الخطيرة ، إلا أنهم كانوا أكثر دقة من تقديرات أجهزة  
المخابرات البريطانية السرية .

وافقت كل من فنلندا وروسيا على وقف إطلاق النار فى ١٣ مارس عام ١٩٤٠ .  
وعلى مدار العام التالى ، صار المستر « كار » والمستر « بوسلى » بؤرة الاهتمام الكثيف  
من جانب مجموعة من المسئولين الفنلنديين المعادين للسوفيت . حيث كانت معلومات  
الفنلنديين حول النوايا السوفيتية تتصف عموماً بعدم جدواها أو بقلّة قيمتها . غير أن  
الذى حدث بعد ذلك هو أن قام أحد الضباط بالجيش الفنلندى بتقديم معلومات هامة  
للغاية إلى المستر « كار » فى ديسمبر ١٩٤٠ ضمنّت له مكاناً مرموقاً فى تاريخ مخابرات  
الدولة السرية البريطانية .

إذ سمع أن ألمانيا ، سوف تقوم بشن هجوم على روسيا فى ربيع عام ١٩٤١ . وقدم  
المستر « كار » تلك المعلومات وأرفق بها التقارير الواردة من العملاء الألمان العاملين فى  
مدينة « ريجا » المطلة على البحر البلطى .

وقدم المستر « كار » التقرير إلى « برودوى » واستطاع أن يزعم فيما تلى ذلك من  
سنوات بأنه حقق كسباً للمخابرات السرية البريطانية ، وشيئاً من الاحترام والتقدير  
الذى كانت تلك الوكالة فى حاجة ماسة إليه ، ولنفسه فضمن بذلك حق الترقى .

وفى يونيو ١٩٤١ ، حينما ثبتت صحة نبؤة المستر « كار » وغزا الألمان روسيا ،  
تحالفت فنلندا مع المعتدى ضد الشيوعيين . وأغلقت السفارة البريطانية وتم تحويل  
هيئة العاملين إلى دولة السويد المحايدة .